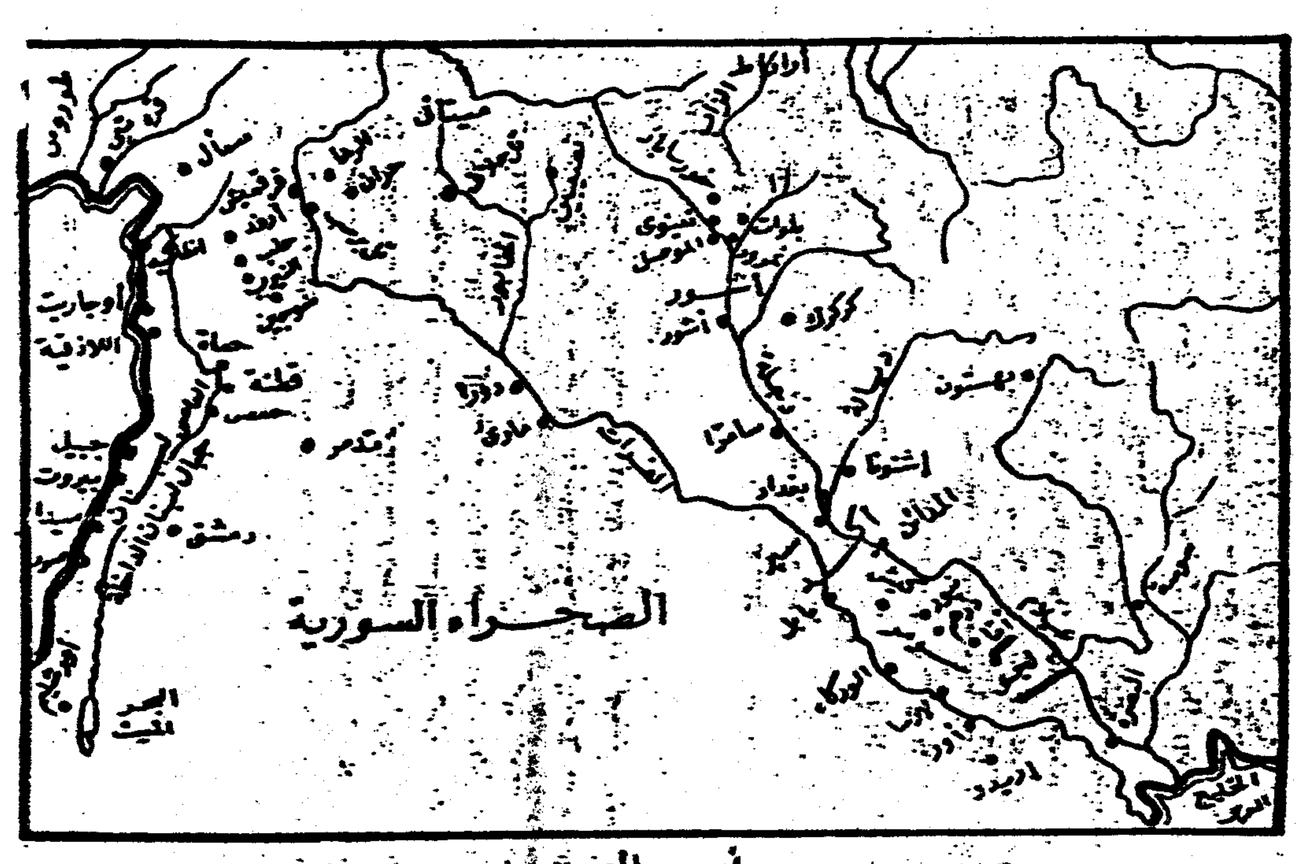
تاريخ الشرق الأدنى القديم

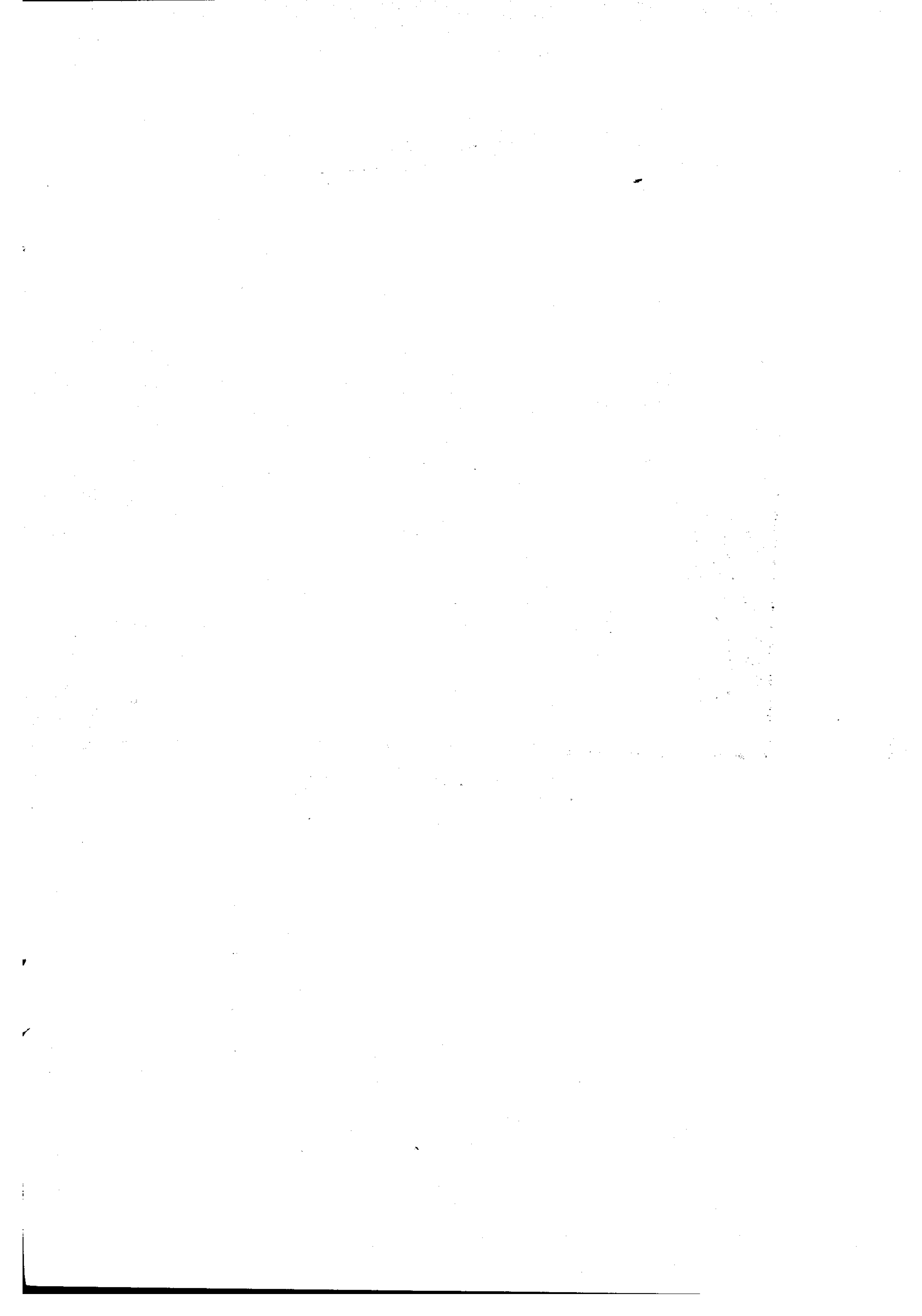
الدكتور
نبيل مروان

الجزء الأول

٢٠٠٦



أرض الرافدين وسوريا



أوائل العصور التاريخية فى العراق

عصر بداية الأسرات السومرى

بدأت خصائص العصور التاريخية فى العراق فى فترة ما تراوحت تقديرات المؤرخين بشأنها بما بين أوائل القرن الثلاثين ق . م وبين القرن الثامن والعشرين ق . م . وتعددت مراكز التجمع والتحضر حينذاك فى النصف الجنوبى من سهول النهرين ، وهى سهول عبرت عنها بعض النصوص السومرية باسم « كلام » أو « كالاما » ورمزت اليها نصوص أخرى بمجموعة العلامات الكتابية « كى — أن — جى » ، ثم ذكرتها نصوص القرن القرن الخامس والعشرين باسم « سومر » أو « شومر » وهو اسم ليس من المستبعد أنه كان يجرى على ألسنة أصحابه بزمن طويل ، ثم شاع فيما بعد أكثر مما سواه والتصق بأهله الذين عرفهم التاريخ باسم السومريين ، واستخدمه الساميون خلفاؤهم فى قولهم « مات شوميريم » بمعنى أرض شومير .

لازال التاريخ على غير بينة أكيدة من جنس السومريين وموطنهم الأصيل الذى وفدوا منه على العراق اذا كانوا قد أتوا اليه حقا من خارجه . وقد دفعت الى الحيرة فى تحديد أصلهم الجنسى واللغوى عدة أسباب منها : اختلاف لغتهم المكتوبة على اللغات السامية المألوفة مع صعوبة تقريبها فى الوقت نفسه الى مجموعة اللغات الآرية المعروفة . وقد ذهب فرض الى تقريبها الى مجموعة اللغات قليلة الشيوع التى تأخذ بطريقة الالصاق مثل المجموعة الآسيانية أو مجموعة الأورال ألتاى ، ولكن بغير أدلة مقنعة . ولوحظ من جهة أخرى أن من أسماء المعالم الرئيسية فى أرض العراق والتى تضمنتها النصوص السومرية نفسها ما يختلف فى لفظه عن مفردات لغة أصحابها السومريين ويختلف عن مسميات اللغة السامية فى الوقت ذاته ، مثل أسماء : دجلة (اديقلات) ، والفرات (بورانون ، بورنونا) ، واريدو وشورو باك ... ، وذلك مما قد يوحى باختلافهم فى الجنس أو اللغة عمن لحقوا بهم أيضا . ثم ازداد الشك فى وحدة جنسهم أن تبين بعض الباحثين أن

جماجمهم الباقية قد جمعت بين خصائص الرؤوس السامية الطويلة وبين خصائص أصحاب الرؤوس العريضة من غير الساميين .

اتجت الآراء فى تخمين الأصل الجنسى واللغوى للسومريين الى عدة مذاهب ، كان منهـا ما افترض أن أجداد السومريين هاجروا الى العراق من المرتفعات الشمالية والشمالية الشرقية التى تحف بـه ، عن طريق آرمينيا وايران . وهو فرض قد يجـد ما يزكيه فى توافر البيئة الجبلية والخصائص الجنسية المومى اليها فى المنطقتين ، لولا أنه يمكن أن تستبعد أرمينيا منهـا ، على اعتبـار أنه كان من المستبعد أن يهبط المهاجرون منها ويتجاوزوا المناطق الصالحة للاستيطان القريبة منها فى شمال بـلاد النهرين ، ليذهبوا بعيـداً عنهـا ثم يستقروا فى الأجزاء الجنوبية حيث تشتد ملوحة الأرض وترتفع المياه الجوفية والرواسب المعدنية للفيضانات وحيث كانت أطرافها لاتزال وحشية الطابع تتطلب مجهودات كبيرة لتهذيبها وتيسير الانتفاع بها .

والى جانب هـذا الفرض فثمة رأى آخر اعتبر أجداد السومريين بدوا مما وراء القوقاز ، أو مما وراء بحر قزوين ، اندفعوا على مناطق غرب ايران فيما يعاصر عصر العبيد أو أوائل عصر الوركاء ، وتجحـوا فى اقتباس حضارة بلاد النهرين التى امتدت عنها عبر حدود ايران ، ثم استعانوا بما تعلموه منها ، وبخفة الحركة البدوية فى الاندفاع الى جنوب العراق منذ الربع الأخير من الألف الرابع ق . م وسيطروا عليه تدريجياً خلال فترة من فترات حضارة الوركاء .

وافترض رأى ثالث أن السومريين هاجروا من منطقة ما تقع فى جزء من الأرجـاء الممتدة بين باكستان وبين أفغانســتان وبلوخستان ، واستقروا بعض الزمن فى غربى ايران ، ثم نزحوا منها الى بلاد النهرين عن طريق الخليج العربى وجزيرة البحرين . وزكى أصحاب هذا الرأى رأيهم بسـند حضارى وآخر اسطورى . فقـد تشابهت أوائل طرز الفخار السومرى القديم وزخارفه فى بلاد النهرين مع نماذج وزخارف الفخار القديمة التى انتشرت جنوباً بشرق حتى منطقتى هاربا وموهنجو

دارا بسهول السند ، وذلك مما يوحى بوجود روابط جنسية وحضارية بدائية قديمة بين أهل هذه النواحى الذين سبقوا الأجناس الهندوأرية فى سكناها ، والذين يكفى أن يقال عنهم أنهم من الفروع المبكرة للسلالات الآسيانية الآسيوية . وذلك مع تقدير ما ألمحت به إليه الأساطير السومرية فيما بعد من أن أصحابها الأوائل هاجروا من الجنوب عن طريق البحر فى عصور كان بقية الخلق لا يزالون يسعون فيها على أربع ، واستقروا حينا فى جنة تلمون (أو دلمون) ، وهى فيما يرجح جزيرة البحرين الحالية ، ثم نزحوا منها بعد ذلك الى « كالاما » بالعراق لأمر تسجله الأسطورة .

ورفض رأى رابع اعتبار السومريين أغرابا ، وتشكك فى نتائج دراسة بقايا الجماجم السومرية ، وافترض أن الرؤوس العريضة فيها ترتبت على اتصالات متقطعة بين سكان جنوب العراق ذوى الأصل السامى فى فجر التاريخ وبين جيرانهم ذوى الأصل ما قبل الآرى ذوى الرؤوس العريضة ، دون أن يتأتى عن هجرة أو وحدة جنسية لازمة بين الفريقين . ولكن صعب على هذا الرأى تعليل اختلاف لغة السومريين عن اللغات السامية .

وما يمكن قوله هو احتمال اعتبار السومريين فرعا جنوبيا مما سمى اصطلاحا باسم الجنس القوقازى أو جنس البحر الأبيض المتوسط ، يختلف عن الفرع السامى ، دون أن ينفى هذا تواجد الساميين وربما من أطلق عليهم اصطلاحا أيضا اسم الجزريين معهم على أرض العراق بنسبة ما ، وإن ظل نفوذهم أقل من نفوذ السومريين لعهود طويلة .

ومهما يكن من أمر هذه الآراء السالفة الذكر عن أصل السومريين ، فالذى لا شك فيه هو أن السومريين فى أوائل العصور التاريخية ، قد انتفعوا بالحضارات التى سبقتهم منذ بواكير العصر الكتابى ، ثم طوروها مع ما يتفق مع مطالب عصرهم وأمكاناته وأذواقه ، وكان من أوضح مظاهر التطوير هو تنظيم علامات الكتابة وأساليب البناء والنقش .

الكتابة المسمارية :

ظهرت تباشير الكتابة فيما يحتمل منذ المراحل الأخيرة لحضارة الوركاء ، أو حضارة جمدة نصر ، فى أواخر فجر التاريخ العراقى القديم • وقد بدأت بالطريقة التصويرية التى تعبر كل صورة منها عما تمثله على وجه التقريب ، وهى طريقة تصلح للتعبير عن الماديات ولكنها لا تكفى للتعبير عن المعنويات ، وقليلا ما عبرت عن الفكرة المعنوية بشىء مادى يرمز اليها كالذراع يعبر عن القوة أو القدم التى تعبر عن حركة المشى ، شأنها فى ذلك شأن الكتابة المصرية فى بداية ظهورها •

وقد عثر على بعض نماذج هذا الطور الكتابى على لوح حجرى صغير رقيق من مدينة كيش صورت علاماته التصويرية ما يمثل الوجه والقدم وواجهة المسكن • ونموذج صغير آخر نقشت علاماته التصويرية فى مستطيلات ضيقة تتعاقب فى أنهر رأسية • ثم تطورت الكتابة على أيدى السومريين بخاصة الى المرحلة الصوتية التى تؤدى علاماتها وصورها وظائف المقاطع الصوتية ، ويمكن التعبير بها عن المعنويات ، مثل استخدام الصورة المختصرة للجذع الأعلى للانسان للدلالة على المقطع « لو » الذى يعبر عن معنى رجل أو انسان وفقا لسياق الكلام • واستخدام صورة السمكة للدلالة على السمكة « خا » ، وللتعبير عما يوازى لفظ « لعل » • وقد عثر على عشرات اللوحات فى الوركاء ، قد ترجع كتابتها الى هذا الطور التصويرى المقطعى •

وقد زاد السومريون علاماتهم المقطعية الصوتية مع توالى الزمن حتى أوفت بمطالب حضاراتهم ، واتجهوا بها وجهة خطية • فقللوا انحناءاتها ودوائرها كى تتناسب خطوطها الحادة الجديدة مع طبيعة اللوحات الطينية اللينة التى استحبوا الكتابة عليها ووجدوها أقرب فى التناول وأيسر فى التكلفة من قطع الحجر • وهى لوحات كانوا يتخيرون طميها نقيا ناعما ويصبونه فى قوالب ذات أشكال متعارف عليها ، فتخرج اللوحة على هيئة القرص مسطحة الوجهين ، أو على هيئة نصف أو مربع الدائرة مستوية السطح محدبة الظهر ، أو على هيئة المستطيل ، وقليلا ما تكون على هيئة المخروط • وقد يتركونها على حالها بعد الكتابة أو

يجففونها فى حرارة عادية بحيث تكتسب صلابة • ويلفون أهمها بنسيج يمهرونه بختم صاحبها فوق قطعة من الطين اللزج • وشاعت هيئة الاستطالة فى الألواح منذ خواتيم العصر السومرى القديم ، وأصبحت اللوحات الهامة منها تحرق فى أفران وتحفظ فى أغلفة طينية بعد أن ينثر عليها قليل من مسحوق الطمى الجاف ليمنع التصاقها بغلافها •

كتب السومريون عباراتهم فى بداية عصورهم دون ترتيب ثابت • ثم أصبحوا يرتبون عباراتهم فى أنهر رأسية يفصل بين كل نهر منها وآخر خط رأسى • وكانوا يبدأونها من اليمين أو من اليسار • ثم انتهوا أخيرا الى تفضيل السطور الأفقية • وكان منهم من يكتبون وجهى اللوحة المسطحة بعد قلبها رأسا لعقب بحيث يقابل النهر الأول من ظهرها النهر الأخير من سطحها •

واستمرت موجة الأختزال تعمل عملها البطىء فى العلامات السومرية • وواصلت وجهتها التخطيطية حتى أصبحت هيئة كل علامة منها تشبه هيئة المسمار ، وذلك مما دعى الى تسمية كتابتها اصطلاحا باسم الكتابة المسمارية (أو الكتابة الأسفينية) • واستخدمت أقلام مصنوعة من الغاب والخشب ذات السن المدبب فى الكتابة ، ثم الأقلام المنشورية المقطع التى انتهوا الى الكتابة بها فأصبحت بدورها من أسباب تسمية الكتابة بالكتابة المسمارية • وظل السومريون منذ ذلك الحين يصورون خطوطهم المسمارية رأسية وأفقية ومائلة ، متجاورة ومتصلة أو متقاطعة •

وقد عمل السومريون على الجمع بين القديم وبين المستحدث فى كتابتهم ، وترتب على ذلك أن كتبتهم كانوا يكتبون الكلمة الواحدة بصورتين أحيانا ، وبطريقتين التخطيطية والصوتية معا • فكلمة « ماتو » بمعنى أرض ، قد يكتبها بثلاث علامات مسمارية تدل عليها ثم يتبعها بثلاثة رموز صوتية تساوى « ما — آ — تو » ، وذلك فضلا عن إلحاقه الى اضافة المخصصات التصويرية الى كلماته أحيانا ، مثل الحاقه علامة الشجرة بأسماء الأقطار والبلدان •

واستمرت الكتابة المسمارية فى تطورها ، وانتقلت بخصائصها من لوحات الطين الشائعة إلى لوحات الحجر والمعدن حيثما توافرت .

وظلت الكتابة المسمارية تختلف عن الكتابة المصرية القديمة فى أربعة أمور وهى : سهولة التعبير نسبيا عن الحركات فى مقاطعها ، وتخليها فى أغلب الأحوال عن الصور الطبيعية الأصلية ، وعدم تطورها الى مرحلة الحروف الهجائية وعدم استفادة أصحابها من مواد الكتابة التى عرفها المصريون لا سيما صفحات البردى وأنواع المداد . وعندما قل استخدام الكتابة المسمارية فى أواخر التاريخ العراقى القديم وغلبت عليها الكتابة الآرامية شيئا فشيئا ، انطوت فى ظل النسيان وأصبحت مجرد رموز وطلاسم .

وقد سجل السومريون الأعداد الحسابية على هيئة دوائر أو أنصاف دوائر أحيانا ، وعلى هيئة خطوط مسمارية قائمة ومائلة تشبه هيئة المربعات والمعينات أحيانا أخرى ، واعتبروا العدد ٦ بداية الكثرة فى الآحاد بعد العدد خمسة ، كما اعتبروا العدد ٦٠ بداية الكثرة فى العشرات وكانوا يرمزون اليه بعلامة مسمارية قائمة . ولعل التقسيم الستينى الحالى للساعات والدقائق كان متأثرا نوعا ما فى أصله البعيد بعلم الفلك البابلى المتأثر بدوره بعلم الرياضيات السومرى .

وقد توافرت للكاتب السومرى مكانته فى مجتمعه ، ويبدو أنهم ظلوا ألصق بالمعابد منهم بغيرها . وظل الناس يحسون بأهميتهم حين يعاملونهم بأسماء الحكام ورؤساء المعابد ، وحين يلجأون اليهم لكتابة العقود وتحرير الرسائل أو قراءتها .

التطور السياسى ونظم الحكم :

اعتمدت الحياة السياسية فى بلاد سومر على امارات المدن ودويلاتها ، دون أن تتطور الى نظام الدولة المركزية الكبيرة الواحدة الا بعد قرون طويلة . وترتب على ذلك أن تعاصرت دويلات وأسر حاكمة كثيرة فى مثل مدن كيش وأوروك وشوروباك وأور ولجش وأوما واريدو وسبار وخفاجى ونيبور .

وتلقب رأس الحكم فى المدينة السومرية فى بداية أمره بلقب « انسى » ، ربما بمعنى النائب أو الوكيل اشارة الى وكالته عن معبود مدينته فى حكم بلده وأهلها ، واشارة الى القداسة بالوكالة التى يرتكز عليها فى ممارسة سلطاته الدينية والمدنية .

ويرى البعض أن الرياسة كان تسند الى رئيس واحد ، نوع من الحكم الثيوقراطى كان يتولاه من يلقب بلقب «سانجا» ويشرف على شئون المعبد الرئيسى ومصالحه ، ونوع من الحكم الديموقراطى تمثل فى وجود مجموعة من الشيوخ كانوا يجتمعون فى مجالس عرفية ويتشاورون فى أمور مدينتهم ، ويسندون القيادة الى واحد منهم خلال الحروب .

وظلت الصيغة الدينية ألصق بلقب « انسى » وترتب على ذلك أن اتفسح المجال أمام كهنة المعبودات السومرية ليكون لهم شأن كبير فى أوضاع دويلاتهم وسياستها ، وظلت معابدهم تنتفع بنصيب كبير من ثروات المدن حتى أصبحت شبه وحدات اقتصادية وادارية قائمة بذاتها .

وقد مال حكام المدن الى تغليب الصبغة السياسية فى سلطاتهم ، وتلقب كل منهم بلقب «لوجال» بمعنى الرجل الجليل ويرادف لقب ملك ، واتسعت سلطاتهم المدنية على حساب سلطان الكهان ، وان ظلوا من الناحية الشكلية يعتبرون ممثلين لمعبوداتهم على الأرض ، ويدعون أنهم يصدرون فى تصرفاتهم عن وحيهم ، ثم تركوا لقب « انسى » لولاتهم الفرعيين وان استعادوه لأنفسهم من حين لأخر ليؤكدوا صلاتهم بأربابهم .

وقد قطع السومريون أكثر من خمسة قرون فى عصر بداية الأسرات ، غابت فيها الوحدة السياسية الكامنة ، ولم تجمعهم بين مدنهم محالفات طويلة الأمد غير القليل ، ولم يكن يدفع دويلات المدن الى محاولات الترابط من حين لآخر غير الرغبة فى تحقيق منافع اذتية ، ومن هذا القبيل رغبة المدن القوية فى بسط نفوذها على جيرانها أو رغبتها فى تصريف منتجاتها وتأمين سبل تجارتها ، أو رغبتها فى سد مطالبها من المواد الأولية التى تتوافر فى منطقة قريبة منها ، ولم تتطلع دويلة منها الى تحقيق وحدة وطنية ثابتة الا فى عهود متأخرة نسبيا .

وليس من المستبعد أن حياة اللامركزية السومرية كانت لها مزاياها الداخلية من حيث تفرغ الحكام لأحوال دويلاتهم والمامهم بمشاكلها ، وقربهم من رعاياهم وصلتهم المباشرة بهم من ناحية ، ولكنها من ناحية أخرى زادت عن فرص المشاحنات بينهم على الحدود وعلى النفور وحرمت سياستها من الانطلاق الدولى الواسع •

صورت المصادر السومرية المتفرقة طرفا من أواخر أدوار التنافس بين مدينتى لجش وأوما ، وقامت كل منهما على أحد فروع الفرات الداخلية • وقد بدأ التنافس بينهما على موارد الماء وحدود الزراعة ، ثم تدخل للفصل بينهما « ميسيلم » أو « ميسالم » أحد حكام كيش الأوائل ، وكانت له صلة وثيقة بمدينة لجش شجعته على أن يقدم هداياه الى ربها « نين جيرسو » ، وربما شارك فى بناء معبده ، فى الوقت الذى حكم لجش فيه حاكم يدعى « لوجال شاج نانشه » ، ففرض بينهما حدودا فاصلة ، ثم أقام نصبا سجل عليه قضاءه بينهما • ولكن النزاع الحدودى بين المدينتين كان قد تطور الى تنافس على الزعامة والسيطرة •

ولم يرد اسم ميسيلم فى قوائم الملوك السمرية ، ولكن نصوص لجش أشادت به ، وكان علما على مرحلة من مراحل الحضارة السومرية فى عصره •

ظهر فى لجش عدد من رجال الاصلاح والسياسة ، عرف التاريخ منهم مؤسس أسرة حاكمة يدعى « أورنانشة » ، وفى عهده نشط العمران الداخلى • وقد اشتهر حاكم من أحفاده يدعى « اآناتم » ، كان رجل حرب فى دولته ، تطور التنافس فى أيامه الى دوره العنيف مع أوما • ويبدو أن حكامها ومنهم « أوش » ، تنكروا فى عهده سنفه لمعاهدة السلام القديمة وأظهروا العدوان واحتلوا الأطراف الزراعية الفاصلة بين المدينتين ، فرد اآناتم لهم الصاع صاعين ، وذكرت نصوصه أنه استفتى ربه فى حربهم وزار معبده • وعندما تم النصر له على خصومه خلد فنان ذكراه على لوحة تعرف اصطلاحا باسم لوحة العقبان •

وصور الفنان الملك يزجى الشكر لربه نين جيرسو ويصب القرابين فى حضرته • ولما استقر النصر لاآناتم ، أعاد تخطيط الحدود ، لصالح

دولته ، وأجبر خصومه على عقد معاهدة جديدة • وأراد ايانم أن يخفف وقع الهزيمة على خصومه فسمح لهم باستغلال جزء من الأرض الحدودية بشرط أداء الضرائب عليها • وشجعه نصره على مهاجمة مدن أور وأوروك وكيش وغيرها ، واشتد على حكامها ، وأراد أن يكفل لنفسه السيادة على أرض سومر • ولكنه لم يتمتع بثمرة انتصاراته طويلا فثارت ضده أغلب المدن التى حاول اخضاعها ، ولقى بعض الفشل بجنوده على حدود الام (عيلام فى ايران) •

وقد حاول حلفاء ا اناتم أن ينهجوا نهجه فى الحرب وبسط النفوذ ، فكانت لهم حروبهم على حدود عيلام وحاولوا زيادة اتصالاتهم ببلاد الشـــام •

ولكن لم تخل الأيام من عودة المنازعات مع دولة أوما ، وقد قص خبرها أحـد كتبة « اينيتمنا » على اسطوانتين من الطين ، وبدأت قصته بعلاقات المدينتين منذ أيام ميسيلم ، وأنهاها باستنزال اللعنات على من يتعدوا الحدود المرسومة باسم نين جيرسو ونانشــة • ولم يكتف الرجل باستنزال اللعنات ، وانما تلاقى جيشه مع خصومه أهل أومـا فى سهل جانا ودحرهم • وتخلفت من عهد انتمنا آثار عدة ، ونشط فى اقامة المعابد وزاد من اهداءاته لها •

ويبدو أن حرص الحكام ذوى السلطة الدينية على رد انتصاراتهم الى تأييد أربابهم ، شجع كهنة أولئك الأرباب على أن يتمتعوا بنفوذ كبير فى ظل ملوكهم ، كما شجعهم على أن يذكروا أسماءهم الى جانب أسمائهم ، وأدت هذه الأوضاع بأن يزيدوا ثراء معابدهم • ومن المحتمل أن نفوذ الكهنة فى لجش قـد تضخم بحيث شـاركوا الحكام أهميتهم • وقـد استرجع النفوذ منهم لوجال « أورو كاجينا » وقـد وجـه همه الى الاصلاحات الداخلية فى عهده القصير الذى لم يزد عن ثمانية أعـوام ، وتعمد على أن يحد من دخل الكهان ويمنع الرشـاوى ويعزل من حامت الشبهات حولهم من الموظفين • فأصدر عدة قرارات تحدث فى بدايتها عن المسـاوىء التى سبقت عهده ، وكيف كان الكهنة والموظفون يغتصبون

فيها أرزاق العباد ويستغلون مزارع المعابد ، ويشتطون فى تحصيل أجور الدفن . وأعلن فى أحدها كيف أقر ربه بأســه فى قلوب ستة وثلاثين ألفا من رعاياه ، وكيف وفقه الى أن يســير على هديه ، ويعيد حرية الأهلين الذين قاسوا المظالم ، فخفف عن الملاحين عبودية العمــل فى مراكبهم لصلحة نظار الملاحة ، وخفف عن الرعاة عبودية العمــل وراء الحمير والأغنام لصلحة نظار الماشية ، ويفهم من نصوص عهده أن اصلاحاته خففت أجر كاهن الدفن الى ثلاث قدور من النبيذ وثمانين رغيفا وتيس وأريكة ، بعد أن كان يتقاضى سبع قدور و ٤٢٠ رغيفا وعــدة أرائك . وخفض مرتبات بعض الكهنة الى النصف ، وألزم العرافين فى المعابد بأن يقدموا تنبؤاتهم بغير مقابل بعــد أن كانوا يشتطون فى فرض أجورهن على الناس .

ظهر فى مدينة أوما عدوة لجش اللدود حاكم طموح وهو لوجــال « زاجيزى » ، استفاد من انصراف أهل لجش الى حياة السلم ، فهاجمهم بجيشــه وضرب مدينتهم وسجل أحــد كتبه لجش ما أصاب بلده ، فصور كيف اعتدى رجــال أومــا على هياكل الأرباب وأملاكهم وكيف نهبوا مدخراتها وحرقوها ، وعقب على ذلك بقوله « آذى رجال أومــا لجش فأثموا فى حق ننجيرســو » .

وتجرأ زاجيزى بنصره فبــدأ فى تنفيذ مشروع ، وهــو مشروع توحيد المــدن السومرية تحت زعامته ، ونقل مركز نشاطه الى مدينة أوروك ، واعتبر نفســه ملكا على سومر « لوجال كالاما » ولم يهمــل لوجال زاجيزى الاستعانة بالدين وأربابه ، وظل يعتبر نفســه كاهنا للاله آن اله أوروك الأكبر ، وأنه ابن الربة نيسابا . ولم تقف آمال زاجيزى عند حدود بلده ، وانما تطلع الى ما يمتد من البحر الأسفل (الخليج العربى) الى البحر الأعلى (البحر المتوسط أو قزوين ؟) ، على حــد دعــواه ، وربما كانت له جهوده بالفعل فى سبيل تحقيق أطماعه ، لولا أن واجهته بوادر تغيير شامل سرت فى أوصال بلاد العراق كلها وقضت على آماله جميعها ، وكان أصحاب هــذا التغيير هم الأكديون الساميون .

بيد أن السومريين وإن عز عليهم التوسع السياسى الكبير خارج حدودهم ، فإن حضاراتهم لم يعوزها الانتشار السلمى الواسع ، فمدت جناحيها عن طريق التجارة على ضفتى الدجلة والفرات ، وتركت بصماتها على فنون دولة آشور ، ودولة مارى ، فضلا عن أطراف الشام الشرقية .

استمر عصر بداية الأسرات السومرى أكثر من خمسة قرون ، غابت الوحدة السياسية فى أغلبها عن آفاق أهلها ، وقد تعددت الأساليب الفنية خلال هذا العصر بتعدد دويلات مدنه وتعدد أذواق أهلها وحكامها وذلك نتيجة لتبادل المصنوعات الفنية بين المدن ، كالأختام الاسطوانية المنقوشة ، وتحف المعابد وقوائم المباخر والموائد الفاخرة التى كانت تشكل بأشكال حيوانية وزخرفية ، لا تخلو من جمال .

* * *

العصر الأكدى

كان الأكديون فرعاً من هجرات سامية متوالية تكاثرت أعدادها فى بوادى الشام والعراق قبيل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ؛ ثم انشعبت فروعا كثيرة ، فكان منها ما انتشر فى نواحى الشام واتجهت أمال بعض جماعاته الى مناطق الهلال الخصيب فيها ؛ كما كان منها ما اقتربت جماعاته من المناطق الخصبة فى أواسط حوض نهر الفرات بالعراق . وعرف أصحاب الشعبة الأولى باسم أطلقه السومريون عليهم وهو « الأموريون » ربما بمعنى أهل الغرب . أما جماعات الشعبة الأخرى فكان أظهر فروعها فرع « الأكديين » الذين اكتسبوا اسمهم بالانتساب مؤخرا الى العاصمة أكد التى أصبحت مركزا لنشاطهم السياسى والحربى بعد فترة من استقرارهم بالعراق .

ولا يوجد تفاصيل عن الظروف التى هيأت لهذا الفرع من الساميين الاستقرار فى بلاد النهرين والتأثير فى مجريات أمورها ، ولكن يمكن القول بأنهم بدأوا دخولهم اليها عن طريق التسلل البطىء على من تقدموهم من أوائل الساميين وربما من ترجم عنهم تجاوزا باسم الجزريين ، حيث وجدت أسماء وألفاظ سامية متفرقة فى نصوص سومر منذ أواسط الألف الثالث ق . م .

وقد انفسح سبيل السعى أمام أهل الهجرات الجديدة الفتية فنزلوا وسط الفرات أو وسط العراق على من سبقوهم من بنى عمومتهم أصحاب الدماء السامية القديمة المتناثرة ؛ وسيطر زعمائهم على بضع مدن عتيقة كانت أهمها مدينة كيش .

تعاقب على عرش كيش عدد من الرؤساء الجدد ؛ ثم ورث العرش عنهم أو اغتصبه منهم شخص من الساميين اشتهر باسم شروكين ، وذكر فى نقوشه أنه نشأ من أصل متواضع ، وأنه لم يعرف أباه ، وأن أخواله استحبوا حياة المرتفعات ، وأن أمه ولدته خفية فى مدينة أزوبيرانو على

ضفة الفرات ثم وضعته فى سلة من البوص وألقت به فى النهر ، فاحتمله الماء حتى انتشله فلاح يدعى أكى وهو يعمل بالشادوف على ضفة النهر ؛ فاتخذه ولدا وعلمه صنعة البستانى ، ثم شملته الربة اشتار وهى عشتار بحبها ورفعت قدره . وقصد من ذلك تأكيد عصاميته ورعاية الربة له ووصوله الى العرش بفضل تأييدها .

اعتلى ذلك الرجل العرش باسم شروكين أى الملك الصادق أو الملك الشرعى ؛ وذكره كتب التاريخ باسمه الأغريقى وهو « سرجون » . وقد وجه الرجل عنايته منذ أيام حكمه الأولى الى قواته المحاربة ، واستخدام الأسلحة البرونزية ، وزاد الاهتمام بتقوية الفرق ذات الأسلحة الخفيفة من القواسة ، وارتقت فى جيشه أساليب المبارزة الفردية .

اتخذ سرجون عاصمة جديدة قريبة من كيش عرفها التاريخ باسم أجادة (السومرى) واسم أكد (السامى) ، وكانت من المراكز الرئيسية لعبادة الربة عشتار التى اعتبرها راعيته منذ صغره ، ونقل بلاطه اليها ، ولقب نفسه بلقب « ملك أرض سومر وأكد » ومهد لأطماعه الخارجية بأن ادعى لنفسه لقب « شاركبرات أربعيم » أى ملك الجهات الأربع .

طال عهد سرجون نحو أربعة وخمسين عاما ؛ واستطاع أن يحقق الكثير من آماله وبدأ سياسته بأن دعم سيطرته على أصحاب الرؤوس السود ؛ ثم اتجه الى شمال العراق حيث تقل سيطرة السومريين ، وواصل فتوحه هناك حتى وصلت جيوشه جبال زاجوراس التى تحف ببلاد النهرين وكبيرت حدة الجوتيين الجبليين الأشداء بأسلحتها البرونزية . وقد اهتم بالمناطق الجنوبية السومرية وشدد على زعيمها الطموح زاجيزى الذى طال عهده ؛ فهدم بجيشه أسوار مدينته ، ثم هاجم بجيوشه بقية المدن السومرية الكبيرة من أمثال أور وايننمار وغيرهما ؛ وبلغ بجيوشه البحر (أى الخليج العربى) وغسل سلاحه فيه ، وحق له حينذاك لقبه الذى ادعاه لنفسه وهو لقب ملك أرض سومر وأكد .

ويقى لسرجون أمله الآخر ، وهو السيطرة على ما يستطيع السيطرة عليه فيما وراء حدود بلاده ؛ لتأمين سلامتها وتأمين سبل

تجارتها الخارجية • فوجه جيوشه الى التخوم الغربية لدولته ، وبدأ بالمنطقة المحيطة بدويلة مارى ثم وجه جيوشــه الى الحدود الغربيــة لدولة الام (عيــلام) • وأصبح لدولته بعض الاشراف على المناطق التجارية المتصلة بالخليج العربى والقريبــة منه ؛ مثل جزيرة دلمون (جزيرة البحرين) ، وماجان وملوخا •

وذكرت نصوصه أن سلطانه امتد حتى غابة الأرز وجبلى الفضة ، وهذا يعنى أنه وصل لمنطقة أمانوس المنتجة للأخشــاب والفضـــة • وذكرت أنه خاض أربعا وثلاثين معركة وانتصر فيها • ونسبت اليــه نصــوص خلفائه أنه غزا جانيش فى كبادوكيا بآســيا الصــغرى •

وليس من شــك فى أن عهد هــذا الملك يعتبر نقطة تحول رئيسية فى تاريخ بلاد النهرين لأكثر من سبب ؛ فهو أول من عمل على توحيد أجزاء كبيرة منها تحت زعامة سياسة واحــدة ، بينما لم تزد آمال سابقيه على توحيد أرض ســومر وحدها • وهو أول من ثبت دعائم أسرة سامية حاكمة قوية استمرت تعتلى العرش نحوا من قرن ونصف قرن •

ومع ذلك كله انتهت حياة سرجون السياسية على غير مــا توقعه لنفســه ، فنشبت ضـــده عدة ثورات ، وأيدت هــذه الثورات جماهير سهل « سوبارتو » ، وبلغ من عنف الثوار أن حاصروا عاصمته ، ولكنه قاومهم بجيشــه وشتت شملهم ثم انتقم من مدنهم •

وردت نصوص خلفائه هــذا الى انتقام الهى ، اذ غضب عليــه مردوك وابتلى قومه بالمجاعة وفرق شملهم من حوله وقضى عليــه بعدم الراحــة •

لم تنته القلاقل فى الدولة الأكدية بانتصــارات سرجون ، وانمــا استمرت فى عهود خلفائه ؛ فاشتبكت جيوش ولده « ريموش » فى فترة حكمه القصيرة مع مدن أور وأما ونجش ودير من عواصم الحضــارة السومرية الأولى • وقد واصل جهود أبيه فى مجالات التوسع الخارجى ، فشنت جيوشــه حروبا ظافرة على أرض عيلام ، ثم واصــل خليفته

« مانيشتوسو » سياسته وادعت نصوصه أن جيوشه هاجمت حلفا من اثنين وثلاثين أميرا على الشاطىء العيلامى لتأمين استغلال مناجم الفضة القريبة منه .

وقد أكمل نرام سين حفيد سرجون آماله بعزيمة راسخة ، وتوافر له عهد حكم طويل استمر نحو ٣٦ عاما ، وذكرت نصوصه أن مناطق نفوذ دولته اتسعت شرقا فى الام (عيلام) وشمالا على حدود آسيا الصغرى وجنوبا بشرق فى ماجان التى استغل رجاله محاجرها الديوريتية ، وغربا حتى أمانوس (جبل الأرز) . وذكرت احدى القوائم المتأخرة التى سجلها خلفاؤه أنه قبض بنفسه على مانو دانو ملك ماجان .

وروت نصوص نرام سين أنه غلب تسعة جيوش وأسر ثلاثة ملوك وقضى على ثورة تزعمتها ضده مدينة كيش . وقد أحيى نرام سين عهد سرجون فى نشاطه العسكرى وسمعته الخارجية ، وأن توسعه هو وجده قد ساعد على انتشار الصيغة الأكدية السامية فى صورها اللغوية والأدبية الجديدة وبنواحيها الفنية فى بعض المناطق المجاورة شمالا وغربا وجنوبا بشرق ، حيث تبادلت التأثير والتأثر مع غيرها .

سبق أن أشرنا أنه ترتب على جهود عهد سرجون وعهد نرام سين بخاصة أن اصطبغت حضارات بعض المناطق المجاورة لأطراف العراق بصبغة متجانسة الى حد ما ، فوجد الخط المسمارى سبيله الى الممالك التجارية الى عدد غير قليل من مراكز الاستقرار المدنى فيما يجاور العراق من أطراف شمال سوريا وجنوب آسيا الصغرى وسواحل الام (عيلام) ، كما انتقلت معه اليها بعض مظاهر الدين العراقى وأساطيره .

غير أن الدولة الأكدية وان نجحت فى أغراضها التوسعية والحضارية الا أنها لم تبرأ من بذور فشلها السياسى ، ولعل أهمها تأثيرا فيها هو أن ملوكها تعمدوا محاباة العنصر الأكدى على حساب العنصر السومرى ، وأسرفوا فى تأكيد مظاهر سلطانهم الفردى ، بحيث أصبح من أعوانهم من يتسمى ولده شروكين ايلى بمعنى سرجون الهى ، وأصبح

نرام سين يرمزون اليه كما لو كان اله أكد وبلده وصـــوره بتاج الأرباب على حين أصبح حكام المدن فى عهده يلقبون بخدم الملك أو عبيده . وقد أدى محاباة الأكديون لبنى جنسهم على السومريين الى تذمر المـــدن السومرية ذات الحضارة القديمة من حكم الأكديين ، ومحاولاتها المتكررة للانسلاخ من جسم الدولة منذ أواخر عهد سرجون نفســـه .

لم تتأت الأخطار التى حاقت بالدولة الأكدية من داخلها فحسب ، وانما هددتها فى الوقت نفسه أخطار حدودية تمثلت فى تحركات قبائل الجوتيين الذين لا يعرف التاريخ عنهم الا أنهم من أهل الجبال ، ولعلها جبال زاجوراس أو المرتفعات الشرقية والشمالية الشرقية . وقد تعددت المناوشات بين الأكديين وبين الجوتيين من حين الى آخر ، لا سيما بعد عهد نرام سين ، وكانت هذه المناوشات تنتهى بانتصاراتهم حينا وانهزامهم حينا آخر . واستمر الانشقاق الداخلى وتهديدات الجوتيين ينخران فى جسم الدولة ، واشتد الشقاق الداخلى بعد وفاة شار جالى بن نرام سين أو حفيده ، بحيث تعاقب على العرش بعده أربعة ملوك فى ثلاثة أعوام .

وفى ظل هذه الظروف ، تدفق الجوتيون على أرض الزراعة بالعراق وفرضوا وجودهم على أغلب أجزائها فى فترات الضعف الأخيرة للدولة ، وأذاقوا أهل المدن المتحضرة القديمة الأمرين من بأسهم ووصفهم أحـــد الأدباء السومريين بأنهم وحوش الجبال الذين فتكوا بالسكان واغتصبوا النســـاء من أزواجهم وسلبوا الأطفال من أمهاتهم ، وعملوا على فساد الحكم ونهبوا سومر ونقلوا كنوزها معهم الى الجبال ، وهو وصف يتفق مع ما هو معروف عن خشونة الجماعات الجبلية .

وبعد أن استقر الأمر لهؤلاء الغزاة فضلوا العودة الى وطنهم فى الشمال مكتفين بفرض الجزية على أهل المدن السومرية ، وقد اتبعوا فى حكمهم الأساليب التى استعملها الأكديون ، ولم يغيروا شيئا من النظم الحضـــارية فاستعملوا اللغة السومرية فى رسائلهم ومكاتباتهم ، وقـــد تفاخروا بتلقيب أنفسهم بلقب « ملوك الجوتى وأركان العالم الأربعة » . ولم يصلنا عن حكمهم شيئا اللهم الا أسماء ملوكهم فقد ذكرت قائمـــة

الملوك السومرية أسماء ٢١ ملكا لهم ولكن خمسة فقط من هؤلاء هم الذين تركوا بعض النقوش ، ولم تذكر النصوص التاريخية اللاحقة لعدهم شيئا عن الأحداث التاريخية فى زمنهم ولكنها مع ذلك تصفهم بالتعسف الشديد .

وكان لبعدهم فى الشمال وتركهم تصريف الأمور لأبناء البلاد الأصليين أثر فى اتاحة الفرصة لهؤلاء كى يعيدوا مجد الحضارة السومرية وأن ينهضوا من جديد فظهرت فى ميدان القوة بعض المدن السومرية وخاصة أور ولجش وغيرها ــ ولم يستمر حكم الجوتيين أكثر من ١١٠ عاما تقريبا .

* * *

عصر الأحياء السومرى (النهضة السومرية)

وقع عبء الكفاح المسلح ضد إنغزاة الجوتيين على أكتاف دولة أوروك ، والتى يحتمل أن تكون نهضتها قد عاصرت فى بعض أيامها نهضة كل من مدينتى لجش وأور • وكان من أبرز حكام دولة أوروك « أوتو خيجال » الذى أعلن الحرب باسم رعاته الأرباب انليل وانانا وجلجميش على قوات الجوتيين ، وقد هزمهم فى موقعة فاصلة قرب كركر ، وأسر ملكهم « تريكان » • واستحقت أوروك بنصرها نوعا من اعتراف أغلب المدن السومرية بزعامتها الشكلية ، وانشغل ملوكها بمظاهر السلطان دون مواصلة العمل الجدى ، فانفلتت الزعامة الفعلية منهم الى دولة أور •

نهضت دولة أور ببداية أسرة حاكمة جديدة أسسها « أورنمو » قبيل القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد أو فى منتصفه ، وعرفت اصطلاحا باسم أسرة أور الثالثة ، وتعاقب على عرش هذه الأسرة خمسة ملوك سعوا الى استعادة الحكم الموحد ، واشتهر منهم الى جانب مؤسسها « أورنمو » ولده « شولجى » « أو شاخ جى » وبمجهود هذين الملكين بالذات خضعت كثير من المدن السومرية والأكدية لدولة أور •

فقد بدأ أورنمو مؤسس الأسرة الثالثة فى أور باعلان الثورة على « أوتو خيجال » حاكم أسرة أوروك وانتزع منه السيادة وأعلن نفسه ملكا على دولة سومر • وكان أورنمو من قواد « أوتو خيجال » فى أول الأمر ولكنه استطاع أن يبرز فى أور وأن يمد نفوذه الى ما وراء حدودها فضم عددا من المدن تحت سلطانه وأعلن نفسه ملكا فى أور على دولة سومر وبذلك أسس أسرة أور الثالثة التى يعد عصرها « عصر أور الذهبى » لما ظهر فيه من تقدم ورخاء •

وقد قام أورنمو باصلاحات كبيرة فأعاد بناء ما تهدم من المعابد وأعاد حفر شبكة القنوات التى كانت تعتمد عليها ثروة البلاد ، وقد عثر

على نسخة من القانون الذى وضعه قبل قانون حمورابى بثلاثة قرون تقريبـا ومن أهم الآثار التى تركها معبد أور المـدرج المعروف باسم زقورات أور وكان مبنيا باللبن فى درجات يعلو بعضها البعض تؤدى الى الأماكن التى تعلو البنـاء — وقد ترك لنا أورنمو نقوشا تبينه وهـو يتعبد فى المعبد كما تبين بعض مناظر عملية بنائه — وكان « جوديا » رابع أمير فى أسرة لجش الثانيـة يعاصر « أورنمـو » أو يعـاصر خلفـه « شولجى » وقـد اشتهر هـذا الأمير بأعماله العمرانيـة وتشجيع التجارة مع كثير من أقطار الشرق الأدنى مثل عيلام وسوريا والأناضول وقـد عمل على رفاهية رعيته طوال مدة حكمه التى بلغت ثلاثين عاما وكان تفانيه فى خدمة الدين من الأسباب التى جعلته يترك آثار تفوق آثار غيره من أمراء المدن السـومرية .

ولـما مات أورنمـو خلفه ولده « شولجى » الذى سار على نهج والده فى سياسة التعمير ولكنه اهتم بمدينة « أريدو » التى كانت على شاطئ البحر وكانت تعتبر مقرا للاله « أنكى » اله المـاء والبحر ، وقد عثر على بعض اللوحات فى مدينـة لجش أمكن منها معرفة الكثير عن النظام الادارى فى عهده وتبين أن الحكومة المركزية فى أور كانت تشرف اشرافا تاما على سائر شئون الدولة فى مختلف أرجائها ، وقد وصـل نفوذه السياسى والحضـارى الى بعيد حتى يرى البعض أنه وصـل الى آسيا الصغرى وحوض البحر المتوسط ولكنه لا يوجـد من الأدلة ما يكفى لاثبات ذلك .

ولـما مات شولجى كان الرخاء والأمن سائرين ولذا لم يجد خلفاؤه ما يوجب بذل جهود ضخمة ، ولكن هـذا الرخاء كان يحمل فى الواقع بين طياته نذير الاضمحلال .

تشريع دولة أور الثالثة :

أضافت دولة أور بضعة تجـديدات فى آفاق السياسة والتشريع ومجالات الصناعة والفن : فأثر لنظم الحكم الداخلية فيها أن مؤسسها « أورنمـو » كان من أقدم مصـدرى التشريعات المكتوبة المعروفة فى

تاريخ العراق ـ بعد تنظيمات أور وكاجينا ـ حيث عثر على أجزاء من نسختين لتشريعه غلب عليهما الأسلوب السومرى وكتب أحديهما طالب فى مدينة أور ، وكتب الأخرى طالب من مدينة « نفر » بعد وفاة أورنمو بنحو ثلاثة قرون ، مما يعنى أن هذا التشريع جاوز صبغته المحلية وطبق فى مدن أخرى • وبدأ كاتب التشريع باختيار المعبودين آنو وانليل للمعبود ننار انه إنقمر ملكا على مدينة أور ، ثم اختيار هذا الأخير « أورنمو » نائبا عنه أو ممثلا له يقوم مقامه على الأرض •

وقد تضمنت المواد الأولى من تشريع أورنمو سعى صاحبه الى ضبط الموازين والمكاييل وتوحيدها ، ورغبته فى تخليص المواطنين ممن يستغلون ماشيتهم وأغنامهم ودوابهم ، والى أن يمنع وقوع اليتيم فريسة للثرى ووقوع الأرملة ضحية للقوى وأن لا يكون صاحب الشاقل ضحية مالك منيه (وتساوى المنية ستين شاقلا) • وكانت كل من المنية والشيقل قطعة معدنية ذات وزن معلوم يصل الى نحو ٥٠٠ جراما تقوم بمقام العملة •

وفى تجريم الاعتداء على النفس والممتلكات ، قرر القانون على الجروح بآلات معينة ، فجعل غرم جرح الساق عشرة شواقل من الفضة ، وغرم كسر العظام مينه من الفضة ، وغرم قطع الأنف ثلثى مينه من الفضة وجعل التشريع العوض عن الجارية بمثلها أو عشرة شواقل من الفضة ؛ وحلوان أعادة العبد الآبق والجارية الى مالكهما شاقلين من الفضة • ونص على أنه من اقتحم حقلا مزروعا فأفسده فعليه أن يعوض صاحبه بقيمة ما أفسده ، ومن استأجر أرضا لزراعتها وأهملها وأصبحت بورا عوض صاحبها بثلاثة كور من الشعير عن كل اكو من مساحتها • وجعل التشريع غرامة الزور ١٥ شاقلا من الفضة • وأجاز اظهار البينة عن طريق الامتحان بالقاء المتهم فى النهر • ويبدو أن غرض ذلك كان ايكال أمره الى اله النهر اذا عجز القاضى عن اثبات التهمة أو نفيها عنه ؛ فان شاء الرب أنقذه وبرأه ، وان شاء أغرقه ببدنه •

وفى الأحوال الشخصية نص التشريع على أن من تزوج بكرا ثم طلقها دفع لها مينه من الفضة ، واذا عاشر رجل أرملة دون عقد زواج

وتركها فلا تعويض لها عنده • والزم والد الخطيبة برد ضعف هدايا الخطيب اذا أخلف وعده له وزوجها لآخر • ونص التشريع على أن من رمى زوجة آخر بالفحشاء ثم برأها امتحان النهر غرم ثلث مينه من الفضة • ونص على أنه اذا ساوت جارية الرجل نفسها بسيدتها وأهانتها حشى فمها بالملح ونقع به • واذا أوقعت زوجة رجلا فى حبها بطريقة السحر فواقعها حق عليها أنذبح دونه ، ومن اغتصب جارية رجل آخر وكانت بكرا غرم خمسة شواقل من الفضة •

وقد أصبحت أغلب هذه البنود ، أساسا لبعض ما تلاها من تشريعات ، كما أن ما وجد منها أدى الى رفض فكرة أن تشريعات حمورابى البابلى القديم هى أقدم تشريعات مكتوبة فى العراق أو فى العالم بأسره •

* * *

تنافس الأموريين والعيلاميين (سيادة مدينتى اسين ولارسا) :

يعد عهد سلالة أور الثالثة الذى دام أكثر من مائة عـام نهاية حياة السومريين السياسية لأن هـؤلاء اندمجوا بعد ذلك بالساميين ولم تحكم فى أور بعدهـا أسرة سومرية خالصـة ـ وقـد قـام آخر ملوكها « أبى ـ سين » وهـو خامسهم ببناء سد لصد هجوم الأموريين وهم الشعبة السامية التى تركزت واستفحلت فى منطقة مارى فى حـوض الفرات الأوسط .

ومن المعروف ـ حسب آخر ما كشف من الوثائق التاريخية ـ أن المدن التى كانت تحكمها أور أخـذت تخرج عن سلطانها حتى السـنة الحادية عشر من حكم « أبى ـ سين » وحينما رأى حاكم مارى الذى كان تابعا لملك أور (وهو المدعو أشبى ـ ايرا) أن الأمـوريين يهددون مدينتى اسين ونفر استنجد أول الأمر بسـيده للدفاع ضد الأموريين ولكنه وجـد بعد ذلك أن تدهور الأحوال داخل المملكة يشجعه على أن يستغل الفرصة لنفســه فقام بالدفاع عن مدينة اسين لصالحه الشخصى ونجح فى تكوين سلالة خاصة فى هذه المدينة ابتداء من السنة الثانية عشرة من حكم « أبى ـ سين » .

وفى نفس الوقت تقريبا نجح العيلاميون فى غزو العراق ودمروا أور ـ ويرى بعض الباحثين ان سبب عدم أخذ « أبى ـ سين » أسـيرا الى عيلام بعد هذه الغزوة يرجع إلى أنه كان متحالفا مع العيلاميين ضد الأموريين عندما اشتد ضغطهم على بلاده ومهما كان الأمر فان سيادة أور انتهت بذلك الغزو المزدوج الذى قام به الأموريون والعيلاميون ، وقد نتج عن هـذا وجـود أسرتين حاكمتين فى العراق احداهما فى اسين وهى التى أسسها « اشبى ايرا » والأخرى فى لارسا وهذه الأخيرة يرجح أنها كانت خاضعـة لنفوذ العيلاميين وفى نفس الوقت كان الأشـوريون فى الشمال قد بدأوا يكونون دولة مستقلة كما وجدت بفترة مملكة فى بابل

ينتمى ملوكها إلى أصل أمــورى ، ومملكة أخرى عرفت باسـم « مملكة أشنونا » (نسبة الى العاصمة أشنونا وموقعها الآن تل أسمر) فى حوض نهر ديالى ، وهكذا نجــد أن جنوب العراق عاد بعد ســيادة أور الى نظام دويلات المــدن .

ولمــا كانت دولة بابل التى أصبحت ذات شــأن عظيم فى الشرق الأدنى ، فقد اصطلح المؤرخون على تسمية هــذا العهد باسـم العهــد البابلى القديم ، وفى اثنائه كانت سـلالة من الساميين الغربيين تحكم فى مدينة مارى وكان بعض ملوكها يعاصرون الملك الحامورابى سادس ملوك الأسرة البابلية الأولى .

وقد استمر النزاع بين أسرتى اسين ولارسا ولا نعرف عن حكمهما سـوى أن ملوك الأسرة الحاكمة فى ايسن (وهم من الأموريين) قاموا بأعمال عمرانية فى أنحاء البلاد الخاضعة لهم ورمموا كثيرا من خرب على أثر سقوط أسرة أور الثالثة وقد حكم فى اسين أسرة حاكمة من ١٥ ملكا لمــدة تقرب من ٢٢٥ سنة من أشهر ملوكها « لبت عشتار » خامس ملوك الأسرة الذى عثر له على قانون مكتوب باللغة السومرية ، أما فى لارسا فقد حكم ١٤ ملكا من البابليين الذين خضعوا لنفوذ العيلاميين مــدة تقرب بنحو ٢٦٠ سنة وقد تدخل العيلاميون فى شئون البلاد وقضوا على آخر ملك فيها وعينوا بدلا منه ابن ملك عيلام فى مكانه ، وكما مات هذا الأخير عين أخوه « ريم سين » من بعده ــ وقــد قضى هــذا الأخير على الأسرة المنافسة فى اسين وحكمها بنفسه ، وكان ذلك فى عهد « زابوم » ثالث ملوك الأسرة البابلية التى كانت تحكم فى بابل ومنذ ذلك الحين أخذ النزاع يشتد بين العيلاميين وبين أسرة بابل الحاكمة ولمــا تولى العرش حمورابى سادس ملوك الأسرة البابلية الأولى الحكم فى بابل تمكن من أن يقضى على العيلاميين بعد حروب طاحنة ــ كذلك قضى على مملكــة اشنونا وتم له ذلك فى السنة الثانية والثلاثين من عهده ، كما استطاع أن يقضى على استقلال المملكة التى تكونت فى أشــور وكان من أشهر ملوكها سرجون الأول الأشــورى .

مملكة اشنونا وتشريعها :

تعد مملكة اشنونا من دويلات المدن التى لعبت دورا هاما فى تاريخ العراق فقد نشأت هذه الدولة التى كانت عاصمتها اشنونا (تل أسمر الحالية) منذ بكورة عصر الأسرات ثم قضى على استقلالها سرجون الأكدى وبعدئذ خضعت لأسرة أور الثالثة ولكنها استقلت بعد ذلك فترة طويلة دامت الى السنة الثانية والثلاثين من حكم حمورابى الذى قضى على استقلالها فى تلك السنة وضمها الى امبراطوريته بعد أن ظلت نحو قرنين ونصف من الزمان وتوالى فى حكمها نحو عشرة ملوك ترك أحدهم (وهو غى الأرجح « بلالاما ») قانونا يعد من أقدم قوانين العراق القديم اذ أنه يسبق قانون « لبت عشتار » بنحو نصف قرن وقد عثر على هذا القانون فى تل حرمل وليس فى اشنونا نفسها .

وقد تدهورت مملكة اشنونا بعد « بلالاما » فترة بسبب اغارة ملك « دير » عليها وهزيمتها أمام ملك كيش الذى حرمها من كثير من ممتلكاتها ، ولكنها عادت الى التوسع فى عهد ملكها « ابيق ـ أداد الثانى » الذى يبدو أنه أراد الاستيلاء على حوض الدجلة وأرض الجزيرة العليا حتى سفوح كردستان وانشاء جسر له على نهر الفرات حتى يتحكم فى طريق التجارة الآتية من الشمال والغرب ولكن هذا التوسع كان وقتيا وذهبت محاولات الملوك الأخيرين فى المملكة من أجل الابقاء على الأراضى التى امتلكوها سدى لأن الممالك القوية التى نشأت فى بابل ولارسا فى الجنوب وآشور فى الشمال ومارى فى الغرب أحاطت بأشنونا ووقفت سدا منيعا أمام أطماعها ثم استولى عليها الأشوريون فى عهد ملكهم « شمش أداد » ولم يبق الحال على ذلك طويلا لأن ملك اشنونا الذى يرجح أنه كان « دادوشا » بدأ يثير المتاعب ويحيك المؤامرات لجيرانه ولملكة آشور ـ وقد تمكن الأشوريون من التوغل فى أراضى اشنونا الى مسافة بعيدة ولكن تعاونت قوات « توروكو » فى كردستان مع قوات أشنونا وظهرت جميعها فى كركوك بل وهددت مارى وقد آثار تقدم هؤلاء على طول الفرات خوف مارى (العاصمة الغربية للأشوريين حينئذ)

فاستنجد ملكها الأشــورى « يشمع ــ أداد » بأخيه « اشمى ــ داجان » ملك آشــور وأوقف تقدم قوات اشنونا ثم قضى حمورابى ملك بابل بعد ذلك على كل من مملكتى اشنونا ومارى .

أما بالنسبة لتشريع دولة اشنونا فقد وجدت بعض لوحاته كما سبق أن ذكرنا فى تل حرمل شرقى بغداد وقد غلب عليه الأسلوب السومرى . ويعتبر هــذا التشريع هو الثانى من نوعه بعد تشريع أورنمو ملك أور ، أو هــو الثالث بعد المحاولة التى قام بها أوز وكاجينا فى لجش .

بقيت من تشريع اشنونا احدى وستون مادة عالجت أهم جوانب الحياة فى عصرها ، فاهتمت طائفة منها بتحديد أسعار الأقوات الضرورية مثل الشعير والزيت والملح ، فجعلت كور الشعير (= ٣٠٠ لتر) بشاقل فضة ، وسعرت الثلاث « قا » من أحسن أنواع صنوف الزيوت بشــاقل فضة ، وكورى الملح بشاقل فضة ، والقا من زيت السمسم الفاخر بثلاث سيات من الشعير .

واهتمت مجموعة ثانيــة بتعيين الحــد الأدنى لأجــور العربات والقوارب ومن يعملون عليها والحد الأدنى لأجــور العمال الزراعيين . فجعلت أجرة العربة بثيرانها وسائقها طوال اليوم بانا و ٤ سيات من الشعير ، أو ثلث شاقل فضة . وجعلت أجرة حمولة كور بالقارب ٢ قو شعير ، وأجرة المركبى سية وقو من الشعير على أن يعمــل على قاربه طوال اليوم ، وجعلت أجرة الأجير فى الشهر شاقلا من الفضة وبانا من الشــعير .

واهتمت مجموعة ثالثة بتحديد العقوبات على الجرائم وعلى الأضرار التى تلحق بالغير ، وجمعت فى ذلك بين القصــاص والغرامة فرضيت بالقتل عقابا للقاتل ، وأقرت مبدأ التعويض عن الجروح التى لا تؤدى الى الوفاة . فقضت على من عض أنف شخص أو اقتلع عينه بأن يدفع غرامة قدرها مينه من الفضة ، وقضت على من كسر سنا لآخر أو قدمه أو قطع أذنه بأن يدفع نصف مينه من الفضة ، وقضت على من صفع وجه آخر وشوهه بأن يدفع له عشرة شواقل من الفضة .

وعنيت مجموعة رابعة من تشريع اشنونا بتنظيم العلاقات الأسرية والمعاملات الخاصة . فاشترطت بنودهـا رضا الوالدين على زواج ابنتهما ، وذكرت أن من أغوى فتاة على معاشرته دون أن يعقد عليهـا أمام والديها لن تصبح زوجته ولو أقامت فى داره حولا كاملا . ونصت على حق المحارب الذى يؤسر مدافعا أو غازيا وينقل الى ديار أعدائه ، فى أن يسترد زوجته حين عودته ولو تزوجت غيره وأنجبت منه خلال غيابه عنها ، ولكنها حرمت هـذا على من فارق بلده كارها له . وجعلت القتل عقابا للزوجة الزانية وعقابا لمن يغتصب فتاة مخطوبة . ونصت على أنه من طلق زوجته ذات الأولاد وتزوج غيرهـا أن يفارق الدار ومـا فيهـا .

ووضعت بنود المعاملات مبدء الشفعة ، فاعترفت بأن الأخوة أحق بشراء نصيب أخيهم من الميراث اذا أراد بيعه ، وبأن من باع دارا أصبح أحق بشرائها ثانية لو باعها مشتريها .

وحددت أرباح القروض معدنية كانت أم عينية فجعلت ربح الشاقل من الفضة سدسا وست حبات ، وجعلت ربح كور الشـعير باقا وأربع سيلات من نفس نوعه .

وفى العقوبات فرض التشريع عشرة شـواقل من الفضة على من يضبط نهـارا فى حقل رجل من الموشكينو أو فى داره ، والموشكينو هم أهل الطبقات العادية من الأحرار . وفرضت الاعدام على من يضبط ليلا فى حقل رجل من الموشكينو أو فى داره .

غير أن كل المكاسب التشريعية كانت لأحرار اشنونا (أو يلوم ، حتى الفقراء منهم) (موشكينو) دون العبيد (اردو)والاماء (امتو) الذين أهدرت كافة حقوقهم .

وقد حرصت مجموعة خاصة من التشريع نفسه على تأكيد حقوق القصور الملكية والمعابد والسادة فيمـا يمتلكون من العبيد والجوارى والعقارات ، فحرمت على الرقيق والاماء الموسومين بأسماء سـادتهم أن يجتازوا بوابة اشنونا دون اذن سادتهم ، وأكدت حق السـادة فى امتلاك أبنـاء جواريهم ولو رباهم غيرهم ، واعتبرت العبـد لا يملك شيئا ، وأنه هـو وما يملكه ملك لسـيده . وهكذا تناولت بنود تشريع اشنونا أغلب مشكلات الحياة فى عصرها .

تشريع اسـين :

شجع صدور تشريع اشـنونا ومن قبله تشريع أور مدنا عراقية أخرى على تجميع شـتات أعرافها وقوانينها والاضافة اليها وتنظيمها وتسجيلها — فخرجت دونة اسـين كبرى عـواصم الأموريين بتشريع مكتوب فى عهد « لبت عشتار » خامس ملوكها فى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر ق • م • وربمـا سجل رجاله هذا التشريع على نصب حجرى كبير لم يعثر عليه بعد ، وسجلوا نسخا أخرى منـه على ألواح طينية صغيرة عثر على سبع لوحات منهـا وقـد تفاوتت فى مدى اكتمالها وأعـداد سطورها ، وتضمنت ٨ مجملها ثماني وثلاثين مادة •

اتخذ لبت عشتار فى مقدمة تشريعه لقب ملك سومر وأكد ونسـب اختياره الى المعبودين آنو وانليل واعتبر نفسـه ولدا لانليل ، وافتخر بأن ربه وهبه امارة البلاد ليحق الحق فيها ويعمل على اسعاد السومريين والأكديين جميعهم ، ثم ذكر أنه استوحى تشريعه من الرب آنو (رب الشمس) والرب انليل • وذكر أنه ابتغى أن يحرر أبناء سومر وأكـد وبناتها من الرق الذى فرض عليهم • وليس فى تشريعه ما ينص صراحة على نوعية هـذا التحرير الا أنه أباح للعبد أن يحرر نفسـه اذا دفع لسـيده ضعف ما اشتراه به وفرض على من أوى عبدا آبقا فى داره شهرا أن يعوض أصحابه عنه عبدا آخر أو يدفع عنه خمسة عشر شاقلا من الفضة •

وفى المعاملات تناولت بنود التشريع أجـور المراكب وبعض حالات الملكية والمواريث وبعض حالات التعويض • فنصت بنود الملكية على أنه اذا جاورت أرض بور منزلا عامرا ، وأنذر صاحب المنزل صاحبها بخوفه أن يعتدى معتد على منزله عن طريقها ، ثم سرق منزله فعلا ، وجب على صاحب الأرض أن يعوضه عما سرق منه • ونصت على أنه اذا عجز مالك أو مالكة على دفع ضرائب أرضه وسـددها شخص آخر ثلاثة أعـوام حق لهذا الأخير أن ينتفع بها دون حق الاعتراض من المنتفع الأصلى •

وتعدى التشريع تعويضات الاضرار بالبشر الى تعويضات أصحاب الحيوانات عن الأضرار التى تصيب حيواناتهم • فمن استأجر ثورا وقطع أنفه دفع لصاحبه ثلث ثمنه ، فاذا فقأ عينه دفع نصف ثمنه ، واذ كسر قرنه أو قطع ذيله دفع ربع ثمنه • وجعل غرامة اقتلاع شجرة من بستان ثلاثين شـاقلا •

وفى الأحـوال الشخصية نصت تنظيمات الأسرة على أنه اذا أنجب زوج أولادا من جاريته وحررها ، لا يحق لأولادها أن يشاركوا أبناءه من زوجته الشرعية فى ميراثهم منه • واذا هجر رجل زوجته وبنى بغيرها تعين عليه أن يستمر فى الانفاق عليها مادامت باقية فى داره •

* * *

دولة بابل الأولى (العصر البابلى القديم)

أسس هذه الدولة الملك « سمو ــ آبوم » الذى كان يحكم رقعة صغيرة فى جنوب العراق ، وقد بدأ توطيد سلطانه بالقضاء على أمراء المدن الجنوبية وأعلن نفسه ملكا على بابل بعد أن بسط نفوذه على سومر وأكد ، وظل فى الحكم ما يقرب من خمسة عشر عاما ثم خلفه أربعة ملوك حافظوا على حدود المملكة واصلاح شئونها .

وقد بدأ ملوك بابل يشعرون بالخطر يهدد كيانهم منذ عهد « زابوم » ثالث ملوك الأسرة نظرا لسرعة انتشار نفوذ العيلاميين بعد استيلائهم على مدينة اسين عاصمة الأموريين .

وحينما تولى حمورابى سادس ملوك الأسرة البابلية عرش بلاده (١٧٢٨ ــ ١٦٨٦ ق . م) لم يغفل خطورة الموقف ، وكان رجلا فذا فى شئون السياسة والحرب فلم يحاول الخروج الى الحرب فى السنوات الأولى من عهده بل شغلها بالاصلاحات الداخلية وتقوية وسائل الدفاع حول مدنه الهامة استعدادا لكفاحه المرتقب ، فقد وجد فى بداية عهده أن دولة لارسا أصبحت تتحكم فى الأجزاء التى تقع الى جنوب بابل بعد أن أخضع ملكها « ريم ــ سين » مملكة اسين لسلطانه وأن مملكة أشنونا تحكم المنطقة التى تقع الى شمال بابل مباشرة بينما كانت مملكة آشور تتحكم فى الأجزاء التى تلى ذلك شمالا .

وقد بدأ حمورابى فى السنة الخامسة من حكمه بالاستيلاء على اسين ولكنه وجد أن قوته لا تسمح بملاقاة « ريم ــ سين » ملك لارسا ففضل الانتظار بعد ذلك نحوا من ثلاثة وعشرين عاما قضاها فى الاستعداد ، وفى السنة التاسعة والعشرين تقابل مع الملك العيلامى « ريم ــ سين » فى حرب قاسية استطاع الانتصار فيها وكان هذا الانتصار حدثا فى تاريخ العراق أرخ به المؤرخون ومن جرائه تغنى شعراء بابل بعظمة حمورابى ورتلوا الأناشيد من أجله فى المعابد .

ولما زال خطر العيلاميين تمكن حمورابى من مد سلطانه شمالا الى أعالى نهر دجلة فاستولى على مملكة اشنونا وضمها الى امبراطوريته كما ضم اليه بلاد الأشوريين اذ تمكن فى السنة الثانية والثلاثين من حكمه من الاستيلاء على عاصمتهم الغربية مارى ، وقد اكتشف أرشيف قصر هذه المدينة وعثر فيه على أكثر من ٢٠ ألف لوحة طينية من بينها مجموعة من الرسائل المتبادلة بين ملوك المدينة وغيرهم من حكام المدن الأخرى وملوكها ، ومن أهمها رسائل تم تبادلها بين الملك « زمرى ليم » وبين حمورابى ؛ كما أن احدى هذه الوثائق تثبت معاصرة الملك حمورابى للملك « شمشى أداد الأول » ملك آشور ، كذلك كذلك تمكن حمورابى من الوصول بحدوده جنوبا الى الخليج العربى ؛ ويعد عصره العصر الذهبى لبلاد العراق القديم من حيث الرخاء والرفاهية التى كانت تنعم بها .

وقد حكم حمورابى حوالى ثلاثة وأربعين عاما تمثل أزهى عصور العراق ولكن خلفاءه لم يتمكنوا من الدفاع عن دولتهم المترامية الأطراف حيث أخذت الثورات تشتعل فى أكثر من مكان ، ورغم أن ولده « سامسو ايلونا » قام بجهود متواصلة لاخماد هذه الثورات فان جهوده ذهبت عبثا حيث أخذت أجزاء من الامبراطورية التى كونها والده فى الانفصال وأعلنت استقلالها ودب الضعف فى كيان ما تبقى من الدولة حتى تمكن الحيثيون فى نهاية عهد الأسرة البابلية من القضاء نهائيا على دولتهم بعد أن حكم فيها ١١ ملكا لمدة تقدر بنحو ٢١٥ سنة .

تشريعات حمورابى :

لم تعتمد شهرة حمورابى على فتوحاته ومنشآته ورعايته لاقتصاديات بلده بقدر ما اعتمدت على التشريعات الادارية والقانونية المتنوعة التى بدأ باصدارها منذ العام الثانى من حكمه وحتى أواخر أيامه . وقد سجلها كتبته على عدة نصب ولوحات اشتهر منها نصب حجرى كبير من الديوريت جمع بين شكل اللوحة وشكل المسلة المحورة (ويبلغ أقصى ارتفاعه الباقى ٢٢٥سم ، وأقصى عرضه فى أسفله ١٩٠سم ، وأقصى عرضه فى أعلاه ١٦٥ سم) ، ولعله أقيم أصلا فى معبد شمش فى

سيبار أو فى معبد مردوك فى بابل . وظهر الملك فى جزئه العلوى يتلقى السلطة والاذن باصدار تشريعاته من رب الشمس والعدل « شمش » بتاجه ذى القرون والأشعة التى تخرج من كتفيه ، وقد وقف الملك أمامه بردائه الكهنوتى وقلنسوة عريضة ويرفع يده اليمنى اجلالا لمولاه ورموزه .

وقد نقشت نصوص النصب بخط مسمارى دقيق . وكان العيلاميون قد استولوا عليه فى أواخر القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، ونقلوه الى عاصمتهم سوسه نكاية فى أصحابها العراقيين الذين سبق لهم أن انتصروا على أسلافهم . ثم أزالوا نحو ٢٨ سطرا من سطوره ليسجلوا نصر ملكهم مكانها . ونقل النصب بعد العثور عليه من ثلاثة أجزاء فى عام ١٩٠١ الى متحف اللوفر فى باريس .

لم تعد تشريعات حمورابى تعتبر هى الأولى من نوعها فى تاريخ بلاد النهرين كما كان يظن من قبل ؛ حيث سبقتها كما تقدم ثلاث محاولات للتشريع ولتدوين نصوص العرف القديم ، فى أور واشنونا واسين ، ولم تكن تشريعات حمورابى بنت عهدها ولا جديدة كلها ولا صدرت فى سنة واحدة ، وانما تضمنت كثيرا من نصوص الأعراف الاجتماعية واللوائح الادارية ونصوص التقنين ، وأبقت بعضها وعدلت بعضها الآخر وزادت عليه واكتسبت بعض شهرتها بناء على نقشها على أكبر سجل قديم عثر عليه حتى الآن احتفظ بقوانين عهده والعهود التى سبقته . وقد تولى تجميع هذه التشريعات فى أواخر عهد حمورابى عددا ما من رجاله القانونيين والمؤرخين والاداريين أغفلت النصوص أسماءهم ونحلت فضلهم الى ملكهم بل وجعلتها من وحى ربه اليه .

تألفت المواد الباقية من تشريعات حمورابى من ٢٨٢ مادة تناولت أهم أمور القضاء والأمن ، وحقوق المدنيين والمحاربين ؛ ومسئولياتهم فى المجتمع ؛ ونظمت شروط عدد من المعاملات والعقود ، وتوسعت فى الأحوال الشخصية بما تضمنته من تقاليد الزواج والطلاق والمواريث والتبنى ، وتحدثت عن الاعتداءات على النفس والمال والقصاص

والتعويضات ، وأجور المهنيين ومسئولياتهم • ويرى بعض الباحثين تقسيم بنود هذه التشريعات الى ثلاثث مجموعات : البنود ١ — ٥ وتتعلق بأمور القضاء والتقاضى وأصول المرافعات • ومجموعة ثانية تتألف من البنود ٦ — ١٢٦ وتتضمن قانون الأموال أو المعاملات • ثم مجموعة ثالثة تتألف من البنود ١٢٧ — ٢٨٢ وتتضمن قوانين الأسرة أو الأحوال الشخصية •

وتضمنت تشريعات حمورابى فى شئون التقاضى والقضاء ، أنه أيما مواطن اتهم مواطنا آخر بجريمة يعاقب عليها بالاعدام ثم لم تثبت عليه قتل عوضا عنه • واذا اتهمه بجريمة يعاقب عليها بالتغريم ، ثم لم تثبت عليه دفع غرامتها • ويندرج هذا تحت ما يعبر عنه الآن بمكافحة البلاغات الكاذبة وأحكام رد الشرف •

وتضمنت فى مسئولية الدولة عن شئون الأمن وحقوق المواطنين عليها ، أنه اذا سرق مواطن ولم يتيسر القبض على سارقه واسترجع المسروقات ، عوضته مدينته وحاكم منطقته عما سرق منه بعد أن يعلنه ويؤكد صحة دعواه أمام تمثال معبوده ويثبته أمام رجال الادارة فى بلدته • واذا قتل مواطن ولم يتيسر معرفة قاتله والاقتصاص منه تعاونت المدينة وحاكم الاقليم على دفع دية الى أهله مقدارها مينه من الفضة • واذا شب حريق فى دار مواطن وكلف آخر باطفائه فاستغل وجوده فى الدار واختلس بعض متاعها ، ألقى به فى النار •

وتضمنت فى اقرار حقوق المحاربين فى مقابل مسئولياتهم ، أنه اذا استشهد محارب آلت أملاكه الى ولده ، فاذا كان ولده صغيرا تولت أمه ادارتها نيابة عنه ان استطاعت ، وربته من ريعها نظير انتفاعها بثلث ايرادها • فاذا لم يكن له ولد ، وآلت اقطاعيته الى شخص آخر ، ثم ظهر أنه حى وعاد الى بلده حق له أن يسترد اقطاعيته •

وأضافت تشريعات حمورابى فى الأحوال الشخصية أو الأسرية الى ما نصت عليه تشريعات سابقة من الزام والد الخطيبة برد ضعف هدايا الخطيب اليه اذا ما رفضه بعد قبوله ، حق والد الخطيبة فى الاحتفاظ

بهدايا الخطيب اليهـا ان عـدل هو من تلقاء نفسـه عن اتمام الخطبة وتزوج بأخرى •

وأخذت تشريعات حمورابى بمثل ما تضمنته تشريعات اشنونا من حيث حق المحارب الذى يؤسر فى ديار الأعداء فى أن يسترد زوجته اذا عاد الى بلده ، ولو كانت فى فراش زوج جديد حتى وان أنجبت منه • وحرمت هـذا الحق على من فارق بلده كارها له • وزادت فحتمت على زوجة الأسير أن تلزم داره مادام فيها ما يكفيها ، والا تلجأ الى فراش آخر والا رجمت وألقى بها فى النهر • فاذا لم يكن لديها ما يقيم أودها فلا بأس عليها ما فعلت •

وقد أحاطت تشريعات حمورابى أفراد الأسرة وتقاليدها بضماناتها وعقوباتها ، وزادت على ما نصت عليـه تشريعات أور واسين فى حقوق الزوجة الشرعية ، فأباحت لها وللزوجة الكاهنة بخاصة ، أن تسـترد جاريتها التى وجبتها لزوجها وتعيدها الى الرق اذا انجبت منه ان تبينت منها تطلعا الى مساواة نفسها بها ، كما أباحت لها بيعها ان كانت غير ذات ولد ، حتى ولو كانت أثيرة عند زوجها • وأكدت التشريعات حق الزوجة فى استرداد مالها من شرقتم فى بيت الزوجية ، وهى مخصصاتها الشخصية التى تزوجت بها من ثروة أبيها ويمكن أن تعهد بها كأمانة الى زوجها لاستثمارها أو للمعاونة فى النفقات بما يشبه الدوطة عن بعض الشعوب المعاصر ـ حين طلاقها ـ ما لم تكن ناشزا • واذا طلبت المرأة الانفصال عن زوجها وامتنعت عليه وثبت لأعضاء مجلس المدينة اضراره بها وهجره لها ، طلقت منه واستردت مخصصاتها • ولكن اذا ثبت تجنبها عليه وعلى بيتها حرمت من مخصصاتها وألقيت فى النهر •

وجعلت التشريعـات للزوج حق الوصية أو الهبة لزوجته دون اعتراض من أبنائه ؛ وسمحت لها بأن تتنازل عن جزء من هـذه الهبة لأولادها ، ولكن دون الغرباء ، واعترفت بحقها فى أن تلزم بيت زوجهـا المتوفى الا اذا أرادت أن تتركه لتتزوج وحينذاك يكون لها حق الخروج بمخصصاتها دون هباته وهدايا عرسها بعد أن يتحرى المسئولون تركة

زوجها الأول ونصيب أبنائه منهـا . وإذا تزوج رجل على زوجته نظرا لمرضها ، فليس له أن يطلقها أو يخرجها من داره أو يمنع الانفاق عليها .

وفى مقابل هذه الضمانات التى كفلتها التشريعات للزوجة ، ألزمتها بواجبات زوجها وبيتها ، بحيث اذا شكاها زوجها أمام مجلس المدينـة واتضح اهمالها لواجباتها الزوجية ولكن تبين الأعضاء فيها خيرا منحوها فرصـة لمراجعة نفسها فاذا قصرت حرموهـا من مخصصاتها وسمحوا لزوجها بأن يتزوج عليها ويستبقيها فى داره ان شاء ويلزمها بخدمته .

وفصلت التشريعات صلات الأولاد بأبويهم وحقوقهم فى المواريث . فجعلت من حق كل ولد على أبيـه أن يعينه بمهر يتزوج به ، فاذا مات الوالد دون أن يتزوج أحـد أبنائه ، أفرد له اخوته قيمة مهر تناسب ثروة أبيـه قبل يقتسمـوا ميراثه . وكفلت نفس الأمر بالنسبة للابنة ومخصصاتها . وجعلت للأبناء الذكور حصصا متساوية فى ميراث أبيهم ومخصصات أمهم ، الا اذا أوصى الأب لولده البكر بوصية .

وألحقت التشريعات الأبناء بخير الأبوين ، فنصت على أنه اذا تزوج عبد بحرة احتفظ أولادهـا بحريتهم فاذا مات عنهـا زوجها استردت مخصصاتها ، واذا كانت ذات ولد قاسمت مولى زوجها المقتنيات التى شاركت زوجها فيهـا بعد زواجها به ، واحتفظت بنصفهـا من أجل أولادهـا .

ونظمت التشريعات أمـور التبنى . فسمحت للرجل بأن يتخذ ربيبه ولدا له ويورثه فان فعل واعترف به ولدا ، ثم تنكر له ربيبه وكان لقيطا وأبى أبوته وتطلع الى اللحـاق بأبويه بعد أن عرفهما ، قطع لسـانه الذى نطق بالمنكر فى حق من رباه أو قطعت أذنه .

ونصت التشريعات على أن من بـاع جاريته أم بعض أولاده أو أجرها لآخر فى سبيل توفير الضرائب المستحقة عليه ، حق له أن يستردها من شاريها أو مستأجرها بنفس ما أداه فى مقابلها .

وأباح المشرع ثلاثة أيام للمشـــاورة فى شراء العبد أو الجارية ، وشهرا يستطيع المشترى أن يعيد العبد خلاله الى بائعه ويسترد ثمنه اذا تبين أنه مصاب بصرع ، فاذا انقضى الشهر كان مالكا له مسئولا عن الدعاوى التى تقام بشـأنه .

وقضت التشريعات على من ضرب أبــاه بقطع يده ، وعلى من ضاجع أمه بعد وفاة أبيه بأن يحرق معها ، وعلى من ضاجع زوجة أبيه الأرمــل ذات الأولاد باستبعــاده من أسرته ، وقضت بالنفى على من يضاجع ابنته ، وبالهلاك غرقا على من يضاجع زوجة ابنه بعد دخوله بها .

وفى شئون الزراعة قضت بعض بنود التشريعات أنه اذا استأجر مزارع حقلا ليزرعة حبا ثم لم يزرعه ، أدى لصاحبه حبا يعادل ما أنتجه حقل جاره ، ومن اقتلع شجرة من بستان جاره دون موافقته غرم نصف مينه من الفضــة .

وفى أمــور القروض والمشـــاركة والأمانات والوكـــالة فى قوافل التجارة . عينت متوسط أرباح القروض بالخمس واشترطت أداءهـــا بنفس المكاييل والأوزان التى أقرضت بها . وظهر فى بعض العقود ما ينم عن امكان رهن الأبناء والبنـــات والزوجات فى مقـــابل الدين وربمـــا أمكان بيع الابن والتنازل عنه أيضـا .

وكان من تجديدات تشريعات حمورابى تحـــديد أجــور الأطباء بمراعاة الحالة الطبقية والاقتصادية للمرضى بحيث حدد أجر العملية فى البدن أو فى العين بالنسبة للثرى بعشرة شواقل ، وبالنسبة للشخص العادى بخمسة شواقل ، وبالنسبة للعبد بشاقلين يتحملهما عنه سيده . وحددت أجر العلاج العادى وجبر العظام بالنســـبة للطبقات الثلاث بخمسة شواقل وثلاثة وشاقلين على التوالى .

كانت هذه هى أهم المعالم الطيبة فى تشريعات حمورابى ، أما أهم ما يؤخذ عليها أنها لم تجعل لأحكامها صفة التعميم دائمـــا ، وأقرت بالتفاوت فى الحقوق المدنية والعقوبات بين طبقات الســـادة (أويلوم) ،

والعامة من الأحرار (مشكينوم) والعبد (وردوم) • فهى وان استحدثت على سبيل المثال مبدأ انعين بالعين والسن بالسن والولد بالولد ، الا أنهــا قصدت تطبيق هــذا القصاص على أفراد الطبقة الواحدة ، ولمصلحــة الطبقات العليا بخاصة ، بينما اكتفت بالتعويض المــادى جزاء لاعتداء أحــد أفراد هذه الطبقات على فرد من طبقة أخرى أقل منزلة من طبقته • فجعلت عقوبة فقء العين للعامى أو كسر عظمه نصف مينه من الفضة • وجزاءهما بالنسبة للعبد نصف ثمنه • وجعلت غرامة اجهاض المرأة من الخاصة عشرة شواقل فاذا ماتت قتلت ابنة قاتلها ، وغرامة اجهاض المرأة من العامة خمسة شــواقل ، فاذا ماتت ففديتها نصف مينه من الفضة ، وغرامة اجهاض الأمة شاقلين ، فاذا ماتت ففديتها ثلث مينه من الفضــة •

وتضمنت التشريعات أنه اذا أدت انعملية الجراحية بسلاح برونزى الى وفاة مريض حر أو أدى الى فتح دمل فى احــدى عينيه الى ذهاب نورهــا قطعت يد الطبيب ، فاذا كان المريض عبدا عوض الطبيب سيده عن حياته بعبد مثله ، وعن عينه بنصف ثمنه من الفضة • واذا عهد لمرضعة بارضــاع طفل فمات عندها قطع ثدى المرضعة •

وقد اصطبغت أغلب مواد تشريعات حمورابى بالشــدة فى مواجهة الاضرار بمصالح الدولة والاعتداءات على النفس والمــال ، وليس من المستبعد أن تكون للتخويف ومنع الجريمة قبل وقوعها أو رد فعل لشيوع الفساد فى مجتمعها وفيما قبل عهدها •

وقد عاب بعض المستشرقين ما ورد فى التشريعات البابلية السامية من قصاص العين بانعين والسن بالسن ورجم الزناه أحيانا ، واعتبروا كل ذلك انعكاسا لعادة الأخذ بالثأر وشدة القسوة لدى البدو الساميين •

مملكة بابل الثانية (دولة أرض البحر)

أشرنا فيما سبق الى أن « سامسو — ايلونا » قام بجهود متواصلة للابقاء على الأمبراطورية التي تركها والده ، وأن هذه الجهود ذهبت هباء حيث فقدت الامبراطورية مساحة كبيرة من أراضيها فبالرغم من أن الثورة التي قام بها أحد الثائرين في الأجزاء المتاخمة لعيلام أخمدت وقتل الثائم بها بعد عامين من نشوبها ، أعلن « ايلومو ايلو » الذي يحتمل أنه كان من سلالة « دامق — ايلو شو » آخر ملوك اسين استقلاله في سومر وأصبح سيدا على البلاد الواقعة في جنوب نيبور جميعها وأسس ما يعرف باسم مملكة بابل الثانية أو « دولة أرض البحر » ، ونتج عن ذلك تدمير وتخريب عدد من المدن السومرية — ومن بينها أور — في الحروب الطويلة الطاحنة ، التي نشبت بين « سامسو ايلونا » وبين دولة أرض البحر الناشئة حيث كانت هذه المدن مسرحا لعمليات الفريقين المتنازعين — وقد حاول خلفاء سامسو ايلونا اعادة خضوع هذه البلاد لسلطانهم دون جدوى ، فظلت دولة أرض البحر قائمة تتبادل النصر والهزيمة مع بابل التي قنع ملوكها في النهاية بتحصين بعض مدنهم والتفرغ للأعمال العمرانية والدينية .

وبعد أن قضى الحيثيون على مملكة بابل الأولى وجد الكاشيون الذين كانوا يستوطنون في أقدم عصورهم منطقة لورستان الفرصة سانحة لاخضاع بابل لسلطانهم وخاصة بعد انسحاب الحيثيين المفاجىء منها ، وأصبح ملوكهم يتربعون على عرشها بعد أن احتلوها — وفي حوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد (أى بعد نحو ٨٠ سنة من الغزوة الحيثية) ملكهم « أولام — بورياش » أن يهزم ملك دولة أرض البحر (أيا جميل) وبذلك قضى الكاشيون الذين أصبحوا يحكمون في بابل على مملكة بابل الثانية وأعادوا خضوع بلاد سومر بأكملها لسلطان بابل من جديد ومن ثم عرفت مملكتهم باسم مملكة بابل الثالثة .

مملكة بابل الثالثة (الدولة الكاشية)

فى نفس الوقت الذى سقطت فيه أسرة بابل الأولى تقريبا أخذت جموع متتالية من رجال القبائل الجبلية الواقعة فى شرق نهر دجلة تهبط على السهول لمهاجمة بلاد بابل ، وقد استطاعت بعد انسحاب الحيثيين أن تكون دولة قوية عرفت باسم الدولة الكاشية أو دولة بابل الثالثة ومع أن حكمها يعد أطول احتلال شهدته أى دولة قديمة اذ استمر نحو ٤٣٠ سنة (١٥٩٥ — ١١٦٢ ق ٠ م) الا أن معلوماتنا عنه قليلة نظرا لضآلة الوثائق التاريخية عنه ٠

ويتميز عصر هذه الدولة بحدوث الكثير من الغزوات والقلاقل فى منطقة الشرق الأدنى القديم ، وقد كثرت السلطات المتنازعة على السيادة الدولية فى أثنائه وكانت بعض القوى الجديدة تظهر ثم لا تلبث أن تختفى لتحل محلها قوى أخرى — وهكذا نجد دولة البحر فى جنوب العراق والكاشيين فى الوسط والأشوريين فى الشمال والشمال الشرقى ، وبينما كان الأشوريون يجاهدون فى الانفصال عن الكاشيين نجدهم لا يلبثون أن يخضعوا للميتانيين — ومن جهة أخرى كان الميتانيون ينافسون الحيثيين الذين استطاعوا القضاء على دولة بابل الأولى والسيطرة على شمال العراق وسوريا واتسعت امبراطوريتهم تدريجيا حتى اصطدموا بالمصريين فى عصور الدولة الحديثة التى كانت حينئذ تسيطر على أكثر مناطق العالم القديم ، أما عيلام فأنها لم تتمكن من أن تعيد قواتها مباشرة بعد أن قضى عليها حمورابى — وفى نهاية هذا العهد تشابكت المصالح الدولية وتبادل الملوك الرسائل وابرمت المعاهدات وقامت المصاهرات بينهم ٠

وقد اختلف المؤرخون فى أصل الكاشيين ولم يصلوا الى رأى فى هذا الصدد ، وكل ما نعرفه عنهم هو أنهم جاءوا من منطقة فى وسط جبال زاجروس كما أشرنا ، وما أن احتلوا بابل حتى تأثروا بالحضارة البابلية

ووحدوا بين آلهتها وبين آلهتهم وقد حكم منهم فى بابل ٣٦ ملكا كان أولهم الملك « جنداش » .

وقد نجح الكاشيون فى القضـــاء على مملكة البحر فى جنوب العراق كما سبق أن أشرنا وبذلك ثبت نفوذهم فى بابل ـــ وتشير وثائق وخطابات تل العمارنة الى وجود علاقات ود وصداقة بين أمنحوتب الثالث والملك الكاشى المعاصر له ـــ ولم يستمر عهد الكاشيين طويلا بعـــد ذلك لأن الأشـــوريين فى الشمال أخذوا يحتكون بهم حينما أرادوا توسيع مملكتهم حيث وجـــد أن توسعهم جنوبا أكثر احتمالا وأيسر سبيلا لأن دولـــة ميتانى ودولة الحيثيين القويتين كانتا تقفان لهم بالمرصاد من الغرب ومن الشمال ، ولذا هجموا على دولة بابل الكاشية وتمكنوا من ضمها اليهم ، الا أن هـــذا الانتصار الأشـــورى لم يستمر طويلا لأن العيلاميين كانوا قـــد استعادوا قوتهم وخاصة فى عهد ملكهم « شيلاق ـــ أنشـــو شناق » الذى استطاع أن يخضع كثيرا من الأقطار المجاورة لسلطانه وقد أخضع بابل وأنهى حكم الأسرة الكاشية ولكن ذلك لم يدم طويلا اذا انتقل الحكم فيها الى أسرة قوية من أمراء اسين تعرف باسم الأسرة البابلية الرابعة أو أسرة اسين الثانية ، وبلغ من قوتها أنها كانت تتدخل فى شئون أشـــور الداخلية ـــ وفى نفس الوقت أخذت عيلام فى التدهور فانتهز « نبو خـــذ نصر الأول » ملك بابل فرصة ضعفها وهاجمها بمساعدة أحد أمرائها وانتصر عليها الا أن هـــذا الانتصار لم يكن هزيمة حقيقية لعيلام ولم يحقق نتـــائج بعيدة المـــدى .

ولـــا لبث الأوضـــاع أن تغيرت بعد ذلك لظهور قوة أشور فكان على خلفاء « نبو خـــذ نصر » أن يكافحوا من أجل المحافظة على الأراضى الأجنبية التى امتلكوها ومن أجل حماية أنفسهم أيضا ، ومع كل فقـــد انتصر الملك الأشـــورى « أشـــور ـــ دان » على بابل وجعل على عرشها أحـــد الأراميين ، ولم تنعم بلاد النهرين عامة وبابل بصفة خاصة بالهدوء والاستقرار بعد ذلك اذ عمت الفوضى والحروب فى أرجائها فترة طويلة ، ففى بابل حكم سبعة ملوك كونوا بها ثلاث أسرات أســس الأولى منهـــا (أسرة بابل الخامســة) أحـــد الكاشيين الذين كانوا من مواليد مملكـــة أرض البحر وأســس الثانية (السادســة البابلية) آرامى ، أمـــا الثالثة

(السابعة البابلية) فقد أسسها عيلامى ـ وما أن تولت العرش أسرتها الثامنة الا وانحدرت الى الهاوية وجرد الأراميون عاصمتها من كل نفوذ خارج حدودها حتى أنها لم تتمكن من اقامة الاحتفالات الدينية التى كانت تنتقل فيها تماثيل الآلهة بين العاصمة وأمهات المدن البابلية فى بداية كل عام وأصبح ملوكها مجرد أسماء فى قائمة ومن المحتمل أن بعض القبائل الأرامية استقرت بين حوض نهر دجلة الأدنى وحدود عيلام وكان من بين هؤلاء الكلدانيون الذين تمكنوا من الاغارة على سومر ثم قدر لهم أن يبعثوا النهضة الى بابل من جديد بعد نحو ٣٠٠ سنة ، ويمكن اعتبار سقوط الأسرة الكاشية الحاكمة فى بابل نقطة تحول هامة فى تاريخ بلاد النهرين ولكن أهميتها لا تقاس بالنسبة لما جرى من أحداث فى الشرق الأدنى خلال القرن الثانى عشر ق ٠ م ؛ فقد اختفت مملكة الحيثيين فى آسيا الصغرى وضعفت قوة مصر وأصبحت فريسة للانقسامات الداخلية واستقر الفلسطينيون فى كنعان بينما كان موسى يقود شعبه الى الأرض الموعودة والرحل الأراميون يهددون الأمراء السوريين والأشوريين فى الغرب البعيد كان اليونان الدوريون يغيرون على شبه الجزيرة الهلينية ، وهكذا تحرك الهندو أوربيين ثانية الى غربى آسيا حيث نشروا استعمال الحديد وبدأوا صفحة جديدة فى تاريخ الانسانية وأحدثوا سلسلة من التحركات الجنسية والسياسية كان لها أثرها السريع فى تغيير معالم الشرق ٠

* * *

دولة آشــــور

كان الأشوريون من الساميين الذين سكنوا فى شمال بلاد النهرين منذ الألف الثالث ق ٠ م ٠ كان اسم آشــــور يطلق فى النصوص القديمة على كل من المدينة والهها والدولة نفسها ٠ وكانت المدينة « آشــــور » التى أعطت اسمها لهم تقع فى بقعة استراتيجية هامة تتحكم فى الطريق بين ســومر وأكد من جهة وبين كردستان وأرض الجزيرة العليا من جهة أخرى فكانت دائما مطمعا للملوك الأقوياء الذين ظهروا فى الجنوب أمثال سرجون ونرام سين وملوك دولة أور — ومع أن الأمراء الأشـــوريين جاهدوا طويلا فى الاستقلال بمدنهم عن حكم الدول التى كانت تخضعهم ســواء من الجنوب أو من الغرب الا أنهم لم ينجحوا فى تأسيس دولة الا فى عصر متأخر نسبيا ، بل وليس لدينا أى دليل على أن هذه الدولة تمكنت من الاستقلال قبل الألف الثانى ق ٠ م ثم قدر لها فيما بعد أن تصل الى مركز الصدارة وأن تلعب دورا خطيرا فى السياسة الدولية فى ذلك الحين ٠

ويقسم بعض المؤرخين تاريخ الأشوريين الى فترتين :

١ — الفترة الأولى من ٦١٠٠ الى ٩٠٠ ق ٠ م ، وفيها كانوا يناضلون فى سبيل النهوض سياسيا وعسكريا ٠

٢ — الفترة الثانية وتمتد بعد الفترة الأولى الى ٦٣٣ ق ٠ م تقريبا وهى التى تمكنوا فيها من تكوين امبراطورية ٠

غير أن غالبية المؤرخين الآن تميل الى تقسيم التاريخ الأشــــورى الى ثلاثة مراحل :

١ — مرحلة التكوين أو « العهد الأشورى القديم » ويبدأ من بلكورة العصر التاريخى لأشور ويستمر حتى نهاية أسرة بابل الأولى ٠

٢ — عصر المملكة الأشورية أو « العهد الأشورى الوسيط » ويبدأ من نهاية مملكة بابل الأولى وينتهى فى بداية القرن التاسع ق ٠ م ٠

٣ ــ عصر الأمبراطورية أو « العهد الأشورى الحديث » ويمكن أن نقسمه بدوره الى قسمين :

(أ) الأمبراطورية الأولى من ٩١١ الى ٧٤٥ ق ٠ م تقريبا ٠
(ب) الأمبراطورية الأشورية الثانية من ٧٤٥ الى ٦١٢ ق ٠م تقريبا٠

١ ــ العهد الأشــورى القديم :

عثر فى خور سباد على قائمة بأسماء ملوك آشــور يمكن أن نعدها مناظرة لقائمة الملوك السومرية ، وهى تعطينا أسماء ١٧ ملكا تذكر أنهم كانوا يعيشون فى الخيام مما يدعوا الى الاعتقاد بأن هؤلاء كانوا يمثلون باكورة العصر التاريخى لأشــور ومع أنها تورد السلالات التى تضمنت أسماء هولاء الملوك متتابعة الا أن من المرجح أن بعضا منها على الأقل كانت تعاصر بعضا آخر ، ومن الملاحظ أن عددا من الأسماء القديمة فى هذه القائمة مثل توديا وأوشيبا وسولولى وكيكيا لا تدل على أصل سامى أو سومرى بل هى أسماء هندو أوربية وربمــا كانت حورية أو سوبارية ــ والسوباريون قوم سكنوا فى شمال شرق بلاد النهرين فى أقدم العصــور ثم اختلط بهم الســاميون الذين أصبحــوا أغلبيــة وكونوا الشعب الأشورى ــ وقد خضع الأشوريون لحكم ملوك أسرة أور الثالثة ، وبعد سقوط الامبراطورية السـومرية أصبحت ــ آشــور ــ مثل كثير من المدن الأخرى مستقلة وبدأ « بوزور ــ آشور الأول » الذى حكم حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد سلسلة جـديدة من الملوك الذين يحملون أسماء أكدية بحته ــ وقد ترك لنا اثنان من هؤلاء (« ايلو شوما » ، « ايروشوم الأول ») نصوصا تدل على بناء معابد للآلهة آشــور وأداد وعشــتار فى المدينة ــ كما أن من المعروف أن « ايلو شلوما » توغل فى جنوب بلاد النهرين أثناء حكم « شمش ــ داجان » ملك اسين (١٩٥٣ ــ ١٩٣٥ ق ٠ م) ٠

ومن المحتمل أن بوزور آشــور الأول قد وســع فى مملكته حتى شملت نينوى على بعد ٦٠ ميلا شمال آشــور ولكن المؤسـسين الحقيقيين لقوة آشــور كانوا من الســاميين الغربيين الذين تدفقوا على شمــال وجنوب بلاد النهرين فى القرون الأولى من الألف الثانى ق ٠ م ، حيث

بدأ أحـد زعماء الأموريين فى الاستقرار فى المنطقة ما بين نهرى الخابور والدجلة وحكمها خلفاؤه كأتباع للآشوريين ثم ازداد نفوذهم حتى تمكن أحدهم وهو الملك « ايلا ـ كابكابو » من الاستيلاء على آشـور نفسها واعتلى العرش ، وفى نفس الوقت تقريبا تمكن أمورى آخر من أن يصبح ملكا فى مارى ـ ومنذ ذلك الحين ارتبط مصـير المملكتين الشمـاليتين العظيمتين كل منهما بالأخرى ، فقد بدأت بينهما علاقات حسن الجـوار أولا ، ولكنها سرعان ما انفصمت وتمكن الأشوريون من الاستيلاء على مارى على يد ملكهم « شمشى أداد » وذلك ملكها « ياهدون ـ ليم » .

وكان الملك « شمشى أداد » فى بدء حياته خارجا على القانون ، فبعد أن أصبح أخوه خليفة لوالده على عرش آشـور فرا الى الجنوب وجمع قوة من المرتزقة استولى بها على مدينة « ايكالاتوم » فى وسط الدجلة التى كانت خاضعة لمملكة اشنونا ثم تقدم الى آشـور ونجح فى اغتصاب العرش من أخيه وبعدئذ توسع غربا حتى وصل الى ساحل البحر المتوسط وعين أحـد ولديه « يشمع أداد » حاكما فى مارى وعين الابن الآخـر « ايشمى ـ داجان » حاكما فى « ايكالاتوم » وهكذا خضع حوض دجلة والفرات لسلطان الأشوريين ولكن ذلك لم يدم طويلا فقد دأبت القبائل الرعـوية التى يحكمها زعماؤهـا على احدى القلاقل وتهديد الممتلكات الأشـورية وخاصة بالنسبة لمملكة مارى كما كانت مملكة اشنونا تحيك الدسائس لمملكة ايكالاتوم واستطاعت أن تهـدد مملكة مـارى وأخيرا تمكنت مملكة بابل فى السنة الثلاثين من حـكم ملكها حمورابى من أن يستولى على مارى وأن تدمرها .

٢ ـ العهد الأشـورى الوسـيط :

ظلت آشـور خاضعة لسلطان بابل الى أن سقطت هذه الأخيرة على يد الحيثيين وبعد أن تراجعوا عنها احتلها الكاشـيون ـ أما آشـور فقد ظهرت فيها أمراء أقوياء كافحوا طويلا فى جبهات مختلفة فقد كان الأراميون فى الغرب والحوريون (الذين كونوا المملكة الميتانية) فى وسط بـلاد النهرين والحيثيون فى الفرات الأعلى والخابور والكاشـيون فى الجنوب ـ وبعـد أن خرج هؤلاء الأمراء الأشوريون من الأزمـات

والصعاب التى تعرضوا لها ما يقرب من خمسة قرون تمكنوا من تأسيس دولة قوية ساعدها الحظ فى عهد ملكها « آشور أو بالليط الأول » بحدوث انقسام فى البيت المالك الميتانى الى فريقين اذ أن أحد الفريقين المتنازعين استعان بآشور رغم أنها كانت لاتزال خاضعة لسلطان الميتانيين ، وكنتيجة للمؤامرات والدسائس بين الفريقين قتل « توشراتا » المعارض للفريق الموالى للاشوريين وفر ولده الى بابل ولكن ملكها « بورنا بورياش » لتمسكه بمبدأ الحياد رفض منحه حق اللجوء السياسى فاضطر الى الذهاب الى البلاط الحيثى بينما اقتسمت آشور ودولة صغيرة فى حوض دجلة الأعلى تدعى « آلشى » بلاد ميتان ، وهكذا تمكن « آشور أو باللّيط الأول » دون أن يطلق سهما واحدا من أن يحرر بلاده من سيطرة دولة ميتان بل وتمكن أيضا من أن يتسبب فى انقضاء على هذه الدولة التى كان قد آباؤه يدفعون لها الجزية — وقد اتبع سياسة حكيمة مع جيرانه فتصاهر مع ملك الكاشيين (الذى تزوج بابنته) أملا فى أن يصبح حفيده يوما ملكا على بابل •

وقد تلا الملك « آشور أو بالنيط الأول » ثلاثة ملوك قاموا بجهود مشكورة فى تأمين حدود بلادهم ، بل وتمكن آخرهم ، « أداد نيرارى الأول » من أن يضم مساحات أخرى من أرض الجزيرة الى ملكه ، على أن أعظم ملوك هذه الأسرة كان دون شك « شلما نصر الأول » رابع خلفاء « آشور أو باللّيط الأول » اذ استولى على منطقة أرمينيا الجبلية « أورارتو » وبلاد الجوتيين وهزم مملكة « هانى جلبات » وجنودها المرتزقة من الحيثيين وغيرهم •

وعندما اعتلى عرش آشور « توكلتى نينورتا » خليفة « شلما نصر الأول » تمكن من الاستيلاء على بابل بعد أن هزم ملكها الكاشى « كاشتلياش » ، ولكن مع هذا حدثت فتنة فى آشور قتل فيها الملك وسادت بعد عهده الاضطرابات وتدهورت أحوال الدولة — وتولى على حكم بابل ثلاثة أمراء ضعاف من الموالين لآشور ، وبعد ذلك تمكن العيلاميين الذين عادوا الى القوة بعد ضعف استمر نحو أربعة قرون من الاستيلاء على بابل — ولم يدم حكم العيلاميين لبابل طويلا لأن

لأن قواهم قد انهكت فى فتح المساحات الواسعة من ايران الغربية من جهة ولأنهم شعروا بخطر الميديين والفرس من جهة أخرى ، وسرعان ما أصبح أمراء الأسرة البابلية الرابعة ليسن على درجة من القوة بحيث أمدتهم التدخل فى شئون آشور وانتهز « نبوخذ نصر الأول » ملك بابل فرصة الانهيار الذى حدث فى مملكة العيلاميين بعد عهد ملكها « شيلاق — أنشو شناق » وهاجمها ولكنه هزم فى أول حملة ثم اضم اليه أحد أمراء عيلام فانتصر عليها انتصارا حاسما .

وقد تعرضت آشور لسلسلة من الأزمات بسبب التنازع على العرش وضاع بعض الممتلكات الشرقية من بلادهم ثم تجمعت حولها المتاعب من جميع الاتجاهات وكادت تقضى عليها لولا نشاط وكفائة بعض الملوك من خلفاء « آشور — دان — الأول » .

بدأت مرحلة التوسع الأشورى الثانية خلال العصر الوسيط بعهد تيجلات بيليسر الأول ، ذلك الملك الذى وصف نفسه بأنه الملك الحق « لوجال كالاجا » ، ملك العالم ، ملك آشور ، ملك الأطراف الأربعة ، البطل الهمام المؤيد بوحى آشور ونينورتا والأرباب الكبار سادته الذين دحروا أعداءه .وقد انفسح المجال أمام آشور فى هذا العهد نتيجة انكماش القوة المصرية بعد كفاحها مع شعوب البحر ونتيجة لمشاكلها الداخلية ، وانكماش نفوذها بالتالى فى بلاد الشام ، ثم خمود حمية شعوب البحر خلفاء الحيثيين فى آسيا الصغرى وزوال رهبتهم من نفوس جيرانهم .

وقد روت حوليات تيجلات بيليسر الأشورى أن آشور وبقية أربابه منحوه البأس والسلطان وأوحوا اليه بأن يعمل على توسيع حدود أرضهم ، وأنه أخضع اثنين وأربعين شعبا وحارب ستين ملكا وانتصر عليهم ، وأنه هاجم أرض نابيرى فى أرمينيا وأجبر أمراءها الثلاثين على أن يسجدوا تحت قدمية ، واحتجز أبناءهم رهائن عنده ، وأنه بلغ جبال لبنان وغزا أرض أمورو ، وتلقى جزية جبيل وصيدا وأروار ، ثم هاجم أرض خاتى الكبرى وفرض الجزية على ملكها ايلى تيشوب ، وهاجم الأخلامو والأراميين ثمانى وعشرين مرة من أرض سوخى حتى

مدينة قرقميش وانتصر على ست مدن من مدنهم وحرقها ودمرهـا ونقل غنائمها الى آشـور ، كما عبر الفرات مرتين فى عام واحد ليدحرهم ، وتغلب عليهم ابتداء من تدمر فى أرض أمورو ، وعنات فى أرض سوخى ، حتى مدينة رابيقو فى كاردونياش (بابل ؟) • وجرب حظه مع بابل نفسها فانهزمت جيوشـه أمام جيوش ملكها « مردوك نادين آخى » حينـا ، وانتصرت عليه حينا آخر • وبلغ من ثقة تيجلات بيليسر بسيطرته على ملكه العريض أن بنى له رجاله قصرين فيما بين سوريا والعراق وزخرفوا جدرانها برسـوم حروبه ورحلات صيده وأساطير قومه وتأثروا فيهـا بعض الشىء بالأسلوب السـورى •

ولم تخل حوليات تيجلات بيليسر من ادعاء واضح فى تعـداد الشعوب التى أخضعها والتى قد لا تزيد أغلبها عن مدن وقبائل متفرقة ، غير أن هـذه الحوليات لم تخل فى الوقت ذاته من أهميـة تاريخية فى تصـوير مناطق انتشار الأراميين بين قرقميش وتدمر وحدود بابل ، ولم تخل من دلالة على خطة رسمت طريق التوسـع الأشورى بعد عهده ، فى مناطق شرق آسيا الصغرى وفى لبنـان وشمال سـوريا ، اشـباعا لشهوة المجـد ، وللاستفادة من أخشابها ، ، وضمـان تنفيذ موانيهـا التجارية لرغبات آشـور ، وان كان تيجلات قد عجز عنها بتلقى جزاها •

ولم ينس تيجـلات بيليسر حظه فى الدنيـا ، فالى جانب قصريه السابقين ، ذكرت نصوصه أنه استقل سفينة من أرواد وأبحر بها مسافة طويلة ، وصاد ما يسمونه غرس أو كلب البحر فى البحر الأعلى • وذكر أنه أمر باستيراد نباتات جديدة لتزرع فى بساتينه ا واستيراد قطعان من المـاعز الجبلى لتطلق فى ساحات الصيد والقنص المخصصة لـه •

التشريعات الاشـورية :

عثر فى أطلال العاصمة آشور على لوحات تشريعية (من الصلصال) نسخت نصوصها خـلال عهد تيجـلات بيليسر الأول فى أواخر القرن الثانى عشر ق • م ، ولكن ذهب البعض الى رد أصولها الى ما قبل عهد تيجلات بيليسر الأول بزمن طويل ، وربما الى أواسط الألف الثانى ق•م•

وقد عالجت هذه التشريعات كثيرا مما عالجته التشريعات العراقية السابقة لها من شئون الأسرة والمعاملات والقروض والرهون والاعتداءات على الغير اعتداء أدبيا أو ماديا . ولوحظ من تجديداتها التى لم يكن لها من قبل غير معالم بسيطة أنها استفادت من العقوبات العامة والخاصة لصالح الدولة ؛ فضمنتها تسخير المذنبين فى أعمال الملك لفترات تتراوح بين عشرين يوما وبين أربعين يوما : واتصفت بقسوة العقوبات فهددت بالخصى والاعدام ، واشتدت فى اشتراط التسجيل والاعلان واشهاد الشهود ، وتوسعت فى جواز رهن أفراد الأسرة ضمانا للديون ، وحرمت الاشتغال بالسحر وجعلت عقوبته الاعدام . وجعلت أمور النساء محورا لعدد كبير من بنودها واشتدت على المنحرفات بخاصة . فقد قضت على من تجهض نفسها باعدامها على الخازوق : وقضت على من تضع يديها على مواطن بتغريمها ٣٠ مينه من الرصاص وجلدها عشرين عصا .

وجعلت التشريعات للزوج ولاية كاملة على زوجته ، وسمحت له بأن يعفو عنها ان أخطأت فى حقه ، أو يطبق عليها بنفسه العقوبات البدنية التى فرضها القانون على مثل حالتها . وكفلت لزوجها حق تشويه أذنيها اذا سرقته وهو مريض أو العفو عنها اذا شاء ، وحرية افتدائها اذا سرقت شيئا ذا قيمة من بيت جاره .

وكما كان للزوجة أن تحتفظ بهبة خنصة تقدم اليها حين خطبتها يكون شأنها شأن الشرقتم الذى تدخل به بيت الزوجية ، واعتبرت التشريعات الأشورية الزوجة متضامنة مع زوجها فى ديونه وعواقب أخطائه وجرائمه ؛ واعتبرت ثروة أحدهما ثروة للآخر اذا انتفعت منه بهبة عقارية .

ونظمت وضع زوجة المحارب الغائب فقضت أن تنتظره خمسة أعوام ، فاذا كان لها أولاد ينفقون عليها استمرت فى عصمته ، أما اذا عنعت بأسره وكانت مقلة غير ذات ولد فعليها أن تنتظره عامين فقط على أن يكفل القضاء لها ما تتعيش به سواء من ايجار أرض زوجها أو داره ، أو من معاشات القصر الملكى ، ثم يسمح لها بالزواج من آخر ؛ على أن يكون لزوجها الأول أن يستردها ان عاد من الأسر .

وسمحت لوالد الخطيب الذى فقد ولده بأن يزوج خطيبته لأحد أولاده الآخرين الذين بلغوا العاشرة (زواجا اسميا حتى يكبر ؟) ، أو أحد أحفاده من خطيبها المفقود (؟) ولا يحق له أن يزوجها بولد دون العاشرة الا برضاء أبيها ، وسمحت للأرمل غير ذات الولد بأن تتزوج أحد أبناء زوجها (من زوجة أخرى) •

وأصرت التشريعات الأشورية على خروج الحرائر محجبات من الرأس الى القدم ، لا سيما اذا خرجن وحدهن ، وعلى أن تسلك الجوارى سبيلهن اذا اصطحبن سادتهن •

وحرصت على عفاف الزوجات المحصنات ، فقضت بقطع اصبع من يربت على خد أنثى متزوجة وقطع شفته السفلى ان قبلها ، وقضت بالاعدام على من اعتدى على امرأة متزوجة رغما عنها ، وقضت باعدامهما معا ان رضيت بما فعله معها •

وفى الوقت نفسه قضت على من يتهم امرأة بالزنا عند زوجها ويعجز عن ادانتها والاستشهاد على صدق قوله فيها ، باستفتاء النهر فى أمره اذا شكته المرأة أو زوجها فاذا اتهمها علنا ولم يأت عليها ببينة وجب ضربه أربعين عصا وخصيه وتغريمه ٦٠ منية من الرصاص وتسخيره فى أعمال الملك شهرا • وقضت على من يغتصب فتاة بكر بغير رضاها بتجريده من زوجته وتسليمها الى والد الفتاة لينكحها من يشاء ، وبأن يسلمه (المعتدى) مهر البكر ، فان شاء بعد ذلك زوجها له وان شاء زوجها لغيره •

وقدرت التشريعات الأشورية جانب المعبودات ، فقضت على من تثبت عليه البينة بالتجديف وسب المعبد بضربه أربعين عصا ، وقضت على من يتهم آخر بهذه الخطيئة ويعجز عن اثباتها عليه ، بنفس العقاب البدنى مع تسخيره فى أعمال الملك شهرا •

وقد توسعت التشريعات الأشورية فى جواز رهن أفراد الأسرة فى دين ، ولكنها حرمت على الدائن أن يزوج ابنة مدينه المرهونة دون

موافقة أبيها ، فان مات أبوها وانتقلت ولايتها الى اخوتها أصبح لهؤلاء أن يحرروها من رهينة الدين خلال شهر ، والا جاز للدائن أن يزوجها بمن يشـاء ، أو يبيعها اذا ورد ما يبيح له ذلك فى نصوص القرض • ولكن حرم على الدائن أن يبيع الرهينة قبل نفاذ الأجل ، وقضت عليه الضرب والسخرة والغرامة وفقد دينه ان فعل ، فان مات الرهين عنده ميتة غير طبيعية عوض أهله عنه بمثله (ان كان عبدا ؟) •

واشترطت التشريعات للبيوع العقارية أن يعلن المنادى عن العين ثلاث مرات خلال شـهر حتى يتسنى لأصحاب الحقوق أن يسـجلوا مستحقاتهم لدى السجل الحكومى خلال هـذا الشهر ، فاذا خلت العين من الالتزامات ، وجب تسجيل بيعها فى حضرة ممثل ملكى (أو وزير) وكاتب المدينة والمسجلين والمنادى اذا تمت الصفقة فى العاصمة ، أو أمام عمدة أى بلد أخرى وثلاثة من أعيانها •

واستمرت التشريعـات فى أحـكام أخـرى كانت لها أشباهها فى التشريعات القديمة ، لا سيما فى شئون المواريث والمشاركة والايجارات والعمل وما اليها •

لم يطل أمد مرحلة النهضة الثانية من العصر الأشورى الوسيط ، على الرغم من بدايتها المشرقة ، ويبدو أن توسعها فى عهد تيجلات بيليسر الأول بخاصة ، كانت طفرة سابقة لأوانها ، فلم تستطع الدولة أن تحافظ على أطرافها البعيدة بعد وفاته ، وانفصلت ولاياتها عنها واحـدة بعد أخـرى •

وهادنت آشـور دولة بابل فترة طويلة حتى تتفرغ للآراميين الذين استمروا فى مناوأتها على فترات متقطعة خلال القرنين الحـادى عشر والعاشر قبل الميلاد ، واستمروا على انشـاء الامارات بجوارها فى شرق الفرات وغربه ، فكونوا امارة بيت أدينى واتخذت عاصمتها فى تل بارسيب على ضفة الفرات جنوبى قرقميش ، وامارتين فى وادى بلخ ، وعدة امارات فى وادى الخابور • كما كونت قبائل تيمانايا الآرامية ثلاث امارات شرقى الخابور الأعلى وهى امارات نصيبينا وخوريزانا وجيدارا •

واتجه فريق من الأراميين جنوبا ، فانتشرت قبائل السوخي على جوانب الفرات من عنات حتى رابيقو . وانتشرت قبائل اللاكي فى سهل يقع جنوبى جبل سنجار . ولم يقتصر أمر الآراميين على ذلك ، وانما اتجهت بعض قبائلهم الى الجنوب الشرقي من دولة أشـــور . فانتشرت قبائل اتوتواتى على شواطىء دجلة ومال النصر فى مراحله الأولى الى صف جماعات الآراميين ، بحيث اضطرت آشـــور الى الانكمـاش فى مناطقها الشرقية الى حين .

٣ ــ العهد الأشـــورى الحديث :

ينقسم هـــذا العهد الى قسمين وهمـــا : (أ) الامبراطوريـــة الأشورية الأولى و (ب) الامبراطورية الأشورية الثانية .

(أ) الامبراطورية الأشـــورية الأولى :

اكتفت آشـــور بحدودها الضيقة تحت ضغط الآراميين حتى تزعمها أشـــور دان (٩٣٢ ــ ٩١٢ ق . م) ، فنهضت فى عهـــده ، وتأهبت لمكافحة الآراميين شرقا وغربا . ثم اشتدت عزائمها فى عهد ولده آداد نيرارى الثانى (٩١١ ــ ٨٩٠ ق . م) الذى غلبت شهرته على شهرة أبيه .

وبعهد هـــذا الملك آداد نيرارى الثانى ، بدأ عصر جديد طويل عرف اصطلاحا باسم العصر الأشورى الحـــديث أو عصر الاتســـاع الأشـــورى الحديث ، واستمر نحو ثلاثة قرون من ٩١١ ــ ٦١٢ ق.م ، وقد ساعد دولة آشـــور على التوسع خلال تلك العصر الأشـــورى الحديث أن أغلب شعوب الشرق القديمة فى مصر وبابل والام ، كانت قد بلغت أدوار شيخوختهـــا ، وأن الجماعات المستحـــدثة فى الشرق بقيت على تفرقها ، فانفسح المجال أمام آشـــور لتصول وتجول فيه حيث تشاء .

وقد بدأ المرحلة الأولى للتوسع الأشورى الحديث أداد نيرارى الثانى ، ولم يتجه فيها الى فتوح بعيدة وانمـــا عمل على تثبيت قواعد حكمه واسترجاع الاشراف انفعلى لدولته على تخومها الغربية حول نهر الفرات والخابور ، واشعار أهل هذه التخوم ، والآراميين منهم بخاصة ،

بسلطانه ، ثم اتجه الى تأمين حدوده الجنوبية ، وحارب دولة بابل مرتين وغلبتها جيوشه فى المرتين ، وأتى نصره عليها بمعاهدة حدودية اعترفت بسيادته على أرض السواد من الخابور فى الغرب الى ما يجاور بغداد الحالية فى الجنوب الشرقى •

وسار خلفه توكلتى نينورتا الثانى على سياسته فى ارهاب الآراميين، فكان من ضحاياهم فى عهده قبيلة « بيت زمانى » التى اتخذت أميدى حاضرة لها • وقد تتبعت جيوشه قبائلهم الجنوبية فى وسط العراق وفيما بين دور كوريجالزو حتى سيبار • ثم اتجه حروبه الى الشمال بغرض ارهاب الجماعات الجبلية •

واتجت سياسة أشور منذ ذلك الحين الى مثل ما رسمه لها تيجلات بيليسر الأول من حيث ارهاب بابل من حين الى آخر ، واخضاع القبائل الجبلية فى الشمال الشرقى ، وتوطيد سلطان الدولة على حدودها الغربية ومحاولة السيطرة الكاملة على الطرق التجارية والحربية التى تتجه غربا الى الشام ، مع محاولة اضعاف الفروع الآرامية الغربية التى استمرت فى شرق سوريا وفى أواسطها وامتد نفوذها الى موانيها البحرية ، ومحاولة الامتداد شمالا بغرب الى جبال طوروس وآسيا الصغرى •

وقام بتنفيذ هذه السياسة فى آشور ملكها أشور ناصر بال الثانى (٨٨٣ ــ ٨٥٩ ق • م) ، وكان وجهة نظر المصالح الأشورية أعظم شخصية ضارية وضاربة فى المرحلة الأولى من عصرها الحديث • وكان يعد من أعظم ملوك الأشوريين شهرة اذ وصلت فتوحاته الى الجبال الشرقية والشمالية وأدخل تحسينات كثيرة فى الجيش والادارة حيث استخدم الخيالة على نطاق واسع وقسم بلاده الى ولايات يحكم كل منها أحد الولاه وجدد بناء مدينة كالح (نمرود) وبنى فيها قصرا فخما زينه بألواح كبيرة من الرخام •

وأكدت نصوصه فى هذا المعبد أنه سيطر على المرتفعات الشرقية والشمالية الشرقية وأنه تلقى جزية الخاتيين ، وأنه ضرب فى الشام حتى غمس أسلحته فى بحر أمورو العميق (أى البحر المتوسط) وتلقى

الجزية من المواني والجزر الفينيقية الكبيرة : صور وصيدا وجبيل وهحلاتا ومايزا وأمورو وامارات الآراميين وأرواد التى فى البحر وأنه صعد جبال لبنان وجلب أخشاب الأرز والصنوبر من جبال خامانا لمعابد سين وشمش ربى النور ، ولاستخدامها فى قصره .

وصبغت نصوص هذا الفاتح الأشورى حروبه وإنتصاراته بطابع القسوة الشديدة والرغبة فى تخويف الخارجين على سيطرته ، فتحدثت على أن رجاله كانوا يسلخون جلود كبار الأعداء أحياء وينشرونها على العمد والأسوار وأبواب المدن ، بالمسامير ، وكانوا يعذبون بعضهم على الأوتاد ويقطعون أيديهم ويجمعون جماجمهم فى أكوام ، ثم يحرقون مئات الأسرى . ولم تمنع أمثال هذه المعاملة آشور ناصربال من أن يشيد بفضل أربابه فى تأييده ، ويكرر اهتمامه بتقديم القرابين اليهم وحرصه على تخصيص أخشاب أرز جبال أمانوس لأبهاء إحتفالات معابدهم .

استفاد شلما نصر الثالث (٨٢٩ — ٨٢٤ ق . م) من جهود أبيه أشور ناصر بال ، واستطاع فيما ذكرته نصوصه أن يسود غرب آسيا من الخليج العربى حتى جبال أرمينيا ومن الحدود الميدية حتى سواحل البحر المتوسط .

وقد قام بسلسلة من الحملات الحربية فى سوريا وفلسطين على أحلاف الآراميين واليهود كما قام بحملات فى الأناضول وهضبة ايران الشمالية وهاجم بعض القبائل العربية .

وفى أواخر حكمه ثار عليه احد أبنائه وأحدث بعض الاضطرابات التى أدت الى فقدان هيبة الدولة فى الداخل والخارج ، ومع أن ولى عهده « شمش أداد الخامس » تغلب على أخيه الثائر الا أن تلك الاضطرابات كانت سببا فى فقدان أشور لبعض مستعمراتها البعيدة — وفى تلك الأثناء ظلت بابل على ولائها لآشور وتحسنت العلاقات بينهما بزواج ملك آشور من أميرة بابلية تدعى « سمورمات » نالت شهرة كبيرة حتى عرفها اليونان باسم « سميرا ميس » ، وقد صارت وصية على ولدها

« أداد نيزارى الثالث » الذى اعتلى العرش وهو صغير السن بعد وفاة والده .

وبعدئذ توالى على حكم آشور ملوك ضعاف حدث فى عهد أحدهم « آشور دان الثالث » كسوف للشمس وتفشى فى زمنه وباء الطاعون ، واستمر تدهور الدولة حتى حدثت فى العاصمة نمرود ثورة داخلية تولى الملك على أثرها « تيجلات بيليسر الثالث » الذى أعاد الى المملكة مجدها وبدأ عهد الامبراطورية الثانية .

(ب) الامبراطورية الآشورية الثانية :

بعد وفاة « أداد ترارى الثالث » تتابع على العرش أولاده الأربعة الذين كان أصغرهم « تيجلات بيليسر الثالث » وقد جاء هذا على العرش بعد مقتل أخيه (ثالث أبناء أداد ترارى) فى الثورة الداخلية التى نشبت فى نمرود — وقد أثبت هذا أنه كان جديرا بالحكم اذ عرف مواطن الضعف فى الدولة وعمل على علاجها ، ثم أخذ يعد العدة لاعادة مجد آشور واستطاع أن يبلغ بامبراطوريته الى حدود لم تصلها من قبل حيث أخضع الدولة البابلية وضمها الى امبراطوريته وأعلن نفسه ملكا عليها — كذلك تمكن هذا الملك من اجتياح المدن السورية وحاصر دمشق الى أن أسقطها وقتل ملكها ، كما تمكن أيضا من أن يؤمن حدوده الشمالية ضد غزوات بعض القبائل الأرمنية — وهكذا قضى تيجلات بيليسر الثالث معظم حكمه فى الحروب ولكنه ترك امبراطورية واسعة .

وفى عهد ولده « شلمنصر الخامس » قام ملك اسرائيل « هوشع » بتحريض من المصريين بمحاولة التخلص من السيطرة الآشورية فاسرع شلمانصر وحاصر السامرة لمدة ثلاثة أعوام ولكنه اضطر الى الرجوع عنها لأنه اضطر الى العودة الى آشور حيث حدثت بعض المؤمرات فيها ، وقد انتهت هذه المؤامرات بقتله بعد حكم دام أقل من خمس سنوات — وفى بداية عهد خليفته « سرجون الثانى » قامت الثورة فى أنحاء كثيرة من الامبراطورية رغبة فى الانفصال عن سيطرتها ، فاضطر أن يقوم بحملات متتالية تمكن على أثرها من أن يعيد الوحدة اليها

وأسرعت بعض المناطق المجاورة لاكتساب عطفه بالهدايا مثل قبرص ، ولما شعر بأن مصر تبذل قصارى جهدها فى اقامة بعض الأحلاف مع أمراء سوريا وفلسطين نكى تحمى نفسها من غزوات آشور المتوقعة قضى على تلك المحاولات حيث أخضع معظم الامارات السورية والفينيقية ودخل السامرة وسبى أحسن رجالها ونقلهم الى ميديا •

ولما مات سرجون تبعه ولده « سناحريب » الذى واجه فى بداية حكمه خطرين احدهما من بابل التى كانت تحاول الاستقلال ثانية والثانى من ولايات سوريا وفلسطين — وكان ملك بابل وملك مصر يمنيان ولايات سوريا وفلسطين بالمساعدة ، وكانت بابل بوجه خاص تحرص على تشجيع هذه الولايات حتى تشغله عنها وقد فطن سناحريب لذلك فتوجه اليها ودك حصونها وخربها وعين ابنه « أسر حدون » واليا على جنوب العراق ثم قضى على أرض البحر فى أقصى الجنوب نكثرة ثوراتهم مستعينا فى ذلك بسفن صنعها له مهرة من الفينيقيين واليونانيين — وحينما علم بحدوث تحالف بين أمراء سوريا وفلسطين بمساعدة مصر توجه الى منطقة الخطر بجيش كبير وغزا المدن الساحلية فى فلسطين ثم حاصر بيت المقدس وأخضعها ولكن وباء خطيرا انتشر بين قواته فاضطر الى العودة الى بلاده بفلول جيشه وخاصة بعد وصول الأنباء بحدوث اضطرابات فيها ومات بأيدى أبنائه الذين طمعوا فى العرش •

وبعد وفاة سناحريب تنافس أبناؤه على العرش • ثم فاز به ولده « أسرحدون » الذى استطاع أن يقضى على الفتنة سريعا ثم وجه همه الى الانتقام من مصر لتدخلها فى شئون مستعمراته فى سوريا وفلسطين — وقد استعد ملكها النوبى طهرقا لملاقاته كما أرسل بعض الإعدادات الى حلفائه فى سوريا وفلسطين ، فلما زحف الملك الأشورى نحو مصر استطاع أن يصل الى شرق الدلتا الا أن المصريين استماتوا فى الدفاع حتى تمكنوا من هزيمة الأشوريين وردوهم عن بلادهم . ففقدت الجيوش الأشورية هيبتها واضطر الملك الى الاستعداد لاعادة الكرة حرصا على سمعه الامبراطورية — أما طهرقا فقد اطمأن الى أن الأشوريين لن يعودوا الى مصر ولم يستعد لملاقاتهم ولكن الملك الأشورى عاد سريعا وظهر فجأة فى سوريا وعاقب ملك صور على انضمامه لمصر ثم أسرع

مخترقا الصحراء ؛ ولم يكن طهرقا متأهب للقائه فوصل الجيش الأشورى الى الوجه البحرى ، واضطر طهرقا الى التحصن بمنف ولكن الأشوريين وراءه وهزموا الجيش المصرى وفتحوا منف ففر طهرقا الى طيبة فى الجنوب واستعمر الأشوريون الدلتا ، ثم عاد « أسرجدون » الى بلاده حيث أصيب بمرض مات على أثره .

وحدث اختلاف على العرش من جديد وانتهى هذا الاختلاف بتعيين آشور بانيبال ملكا بينما عين أخاه الأكبر ملكا على بابل ولم يكد آشور بانيبال يجلس على العرش حتى وصلته أنباء عن ثورة المصريين ضد آشور اذ أن بعض أمرائهم اتفقوا مع طهرقا على أن يعود هذا الأخير الى الدلتا ويقتسم السلطة معهم ، فجرد آشور بانيبال حملة كبيرة سارت الى مصر ولم تكتف هذه الحملة باحتلال الدلتا بل سارت الى طيبة وخربتها وعاد طهرقا الى عاصمته فى النوبة العليا (نباتا) وبقى بها الى أن مات — ومع ذلك لم يبق الأشوريون بمصر طويلا بل عادوا الى بلادهم واكتفوا بأخذ الجزية ، فلما تولى عرش نباتا « تانوت أمانى » عاد الى احتلال مصر من جديد ولم يجد آشور بانيبال بدا من معاودة الهجوم على مصر فاضطر « تانوت أمانى » الى الفرار الى عاصمته نباتا وخرب الجيش الأشورى طيبة للمرة الثانية . وقد استمر التعاون بين آشور بانيبال وأخيه ملك بابل نحو عشرين عاما ، ولكن هذا الأخ ثار عليه بعد ذلك فجرد آشور بانيبال ضده حملة تأديبية تمكنت من القضاء عليه وفتحت بابل عنوة ، وبعدئذ تقدم الأشوريون جنوبا وأخضعوا القبائل العربية والأرامية التى ساعدت بابل فى ثورتها وهاجموا العيلاميين وفتحوا عاصمتهم سوسة كذلك .

وبعد وفاة آشور بانيبال حدثت منازعات حول العرش تمكن بعدها ولده « آشور — انل — ايلانى » من الفوز به ولكنه كان ضعيفا فانفصلت عنه المملكة بعض ممتلكاتها مثل مصر وكثير من المدن الساحلية فى فلسطين وسوريا كما انفصلت عنها مدن أرمينيا ، وشن أحد ملوك الميديين هجوما على آشور ولكن الجيش الأشورى هزم جيشه وقتله . وفى بابل تكونت أسرة جديدة عرفت باسم « الأسرة البابلية الأخيرة » أو « المملكة الكلدانية » وكذلك انتهز القائد الأشورى فرصة اقامة الملك

فى نمرود فأعلن تمرده عنيه فى نينوى وعزله ولكن أخا الملك حارب هـذا القائد وقضى عليه ثم استأثر بالسلطة .

وقد أثرت الحرب الداخلية على سمعة المملكة وهيبتها فانفصلت أماكن أخرى كثيرة عنها واستطاع « كى اخسار » ملك الميديين أن يستولى على شمال ايران وشمال بلاد النهرين ثم توغل الى سهول أشور حيث قامت بينه وبين الجيش الأشـورى حروب طاحنة ، وبعد أن اتفق مع ملك بابل هاجما العاصمة فسقطت فى أيديهما بعد حروب عنيفة واقتسما مملكة أشـور فاستولى الميديون على قسمها الشمالى الشرقى واستولى البابليون على جنوبها وأرسل ملك بابل ولده « نبو خـذ نصر » ليتبع فلول الجيش الأشـورى التى كانت قـد هربت الى حران ، وانتصر « نبو خذ نصر » وقضى على بقية الجيش الأشـورى ثم واصل سيره غربا واحتل المقاطعات التى كانت تخضع للأشوريين من قبل ، وقد تقابل مع الملك المصرى نكاو الذى كان قـد تقدم الى سـوريا ودارت بين الاثنين معركة حاسمة بالقرب من قرقميش انتصر فيها نبـو خـذ نصر وتراجع الجيش المصرى الى بلاده .

* * *

العصر البابلى الأخير « المملكة الكلدانية »

أشرنا فيما سبق الى القلاقل التى تعرضت لها الدولة الأشورية قبل انهيارها والواقع أن أكثر من هذه القلاقل خطورة هى التى قامت فى الجنوب حيث انتهز البابليون فرصة تدهور آشور وبدأو كفاحهم من أجل الاستقلال وقد بدأ الحاكم البابلى الذى عينه (أشور بانيبال) بعد أخيه فى الثورة بمجرد تعيينه ، وبعد وفاته أصبح حاكم بلاد البحر « نابو بولاسر » زعيما للثورة ولم تتمكن القوات الأشورية المرابطة فى الجنوب (فى نيبور) من هزيمته فأعلن نفسه ملكا على بابل مؤسسا الأسرة الحادية عشر البابلية وهى التى عرفت باسم « الأسرة البابلية الأخيرة » أو « المملكة الكلدانية » .

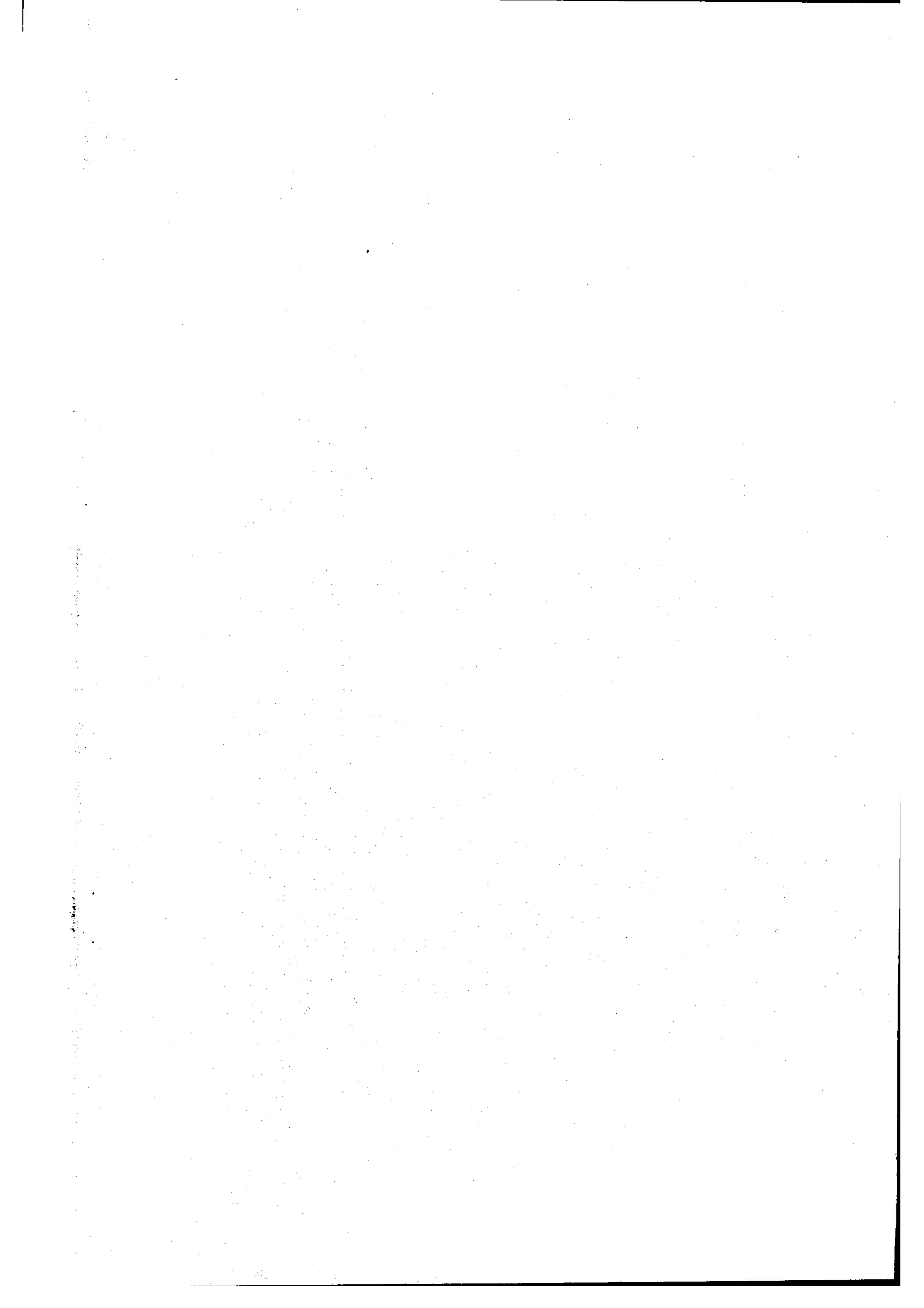
ولقد ظلت الحروب قائمة بين بابل وآشور نحو احدى عشر عاما استطاع بعدها « نابو بولاسر » أن يستولى على نيبور وأن يحرر كل بلاد سومر وأكد ثم استمر فى فتوحاته شمالا على طول الفرات حتى وصل الى منطقة حران ومنها تقدم على طول دجلة الى كركوك وآشور وحاصر أشور ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء عليها ، وفى تلك الأثناء طلب الأشوريون المعونة من مصر التى كانت خاضعة لها فيما سبق ولكن هذه المعونة جاءت متأخرة لأن الميديين كانوا هم أيضا قد بدأوا غزو الأراضى الأشورية واستولوا على أربخا وآشور ، وعند هذه الأخيرة تقابل « كى اخسار » ملك الميديين مع « نابو بولاسر » ملك بابل وارتبط برباط الصداقة والسلام وأيدا ذلك فيما بعد بزواج « نبو خذ نصر » ابن « نابو بولاسر » من اميتس ابنة « كى اخسار » ، ومنذ ذلك الوقت ظل الاثنان يحاربان معا حتى تمكنا فى النهاية من اسقاط نينوى — وبعد مقتل آخر ملوك آشور اعتلى العرش أحد قواده « آشور أو باليط » وجمع ما بقى من فلول الجيش الأشورى والمدد المصرى الضئيل الذى أرسل الى آشور واعتصم بهم فى منطقة حران ، فتقدم البابليون والميديون نحوه وسقطت مدينة حران فى أيديهم — وبعد محاولات يائسة لمدة عام تقريبا اختفى « أشور أو باليط » بعد أن اعتلى العرش الأشورى نحو ثلاثة أعوام ، ويبدو أن الميديين لم يهتموا بامتلاك آشور نتنوا بنصيبهم من الغنائم ثم حولوا أطماعهم الى أرمينيا وآسيا الصغرى — أما البابليين فقد امتلكوا آشور ولكنهم لم يحتلوها ولم

يحاولوا اصلاح ما أتلفوه فيها حيث كرسوا جهودهم لاعادة احياء المجد الديني والثقافي لجنوب بلاد النهرين .

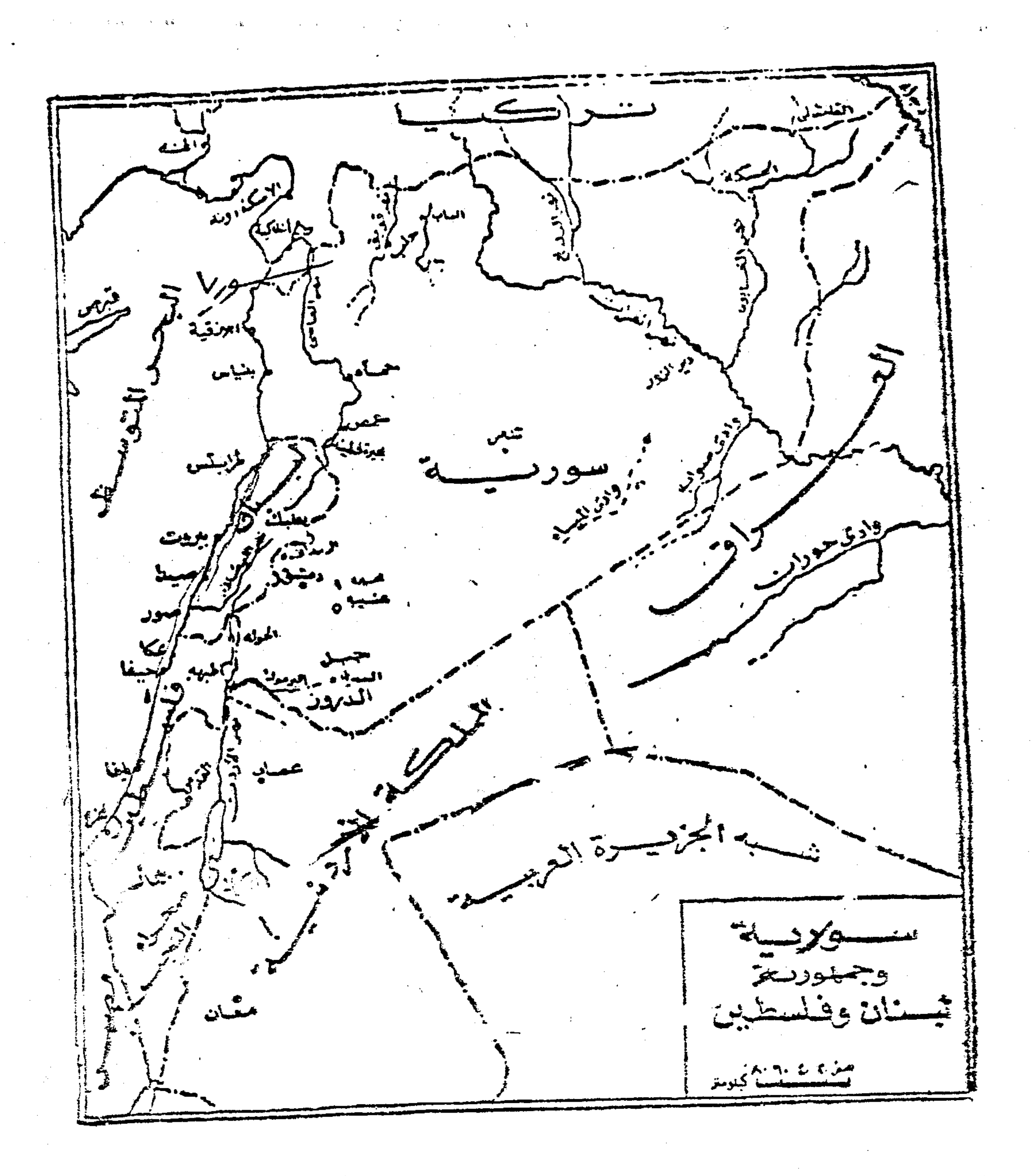
وحينما وقعت سوريا وفلسطين في أيدي المصريين كمحاولة غير ناجحة من ملكهم نخاو لمساعدة خلفائه الأشوريين تقدم البابليون للقائه بقيادة « نبو خذ نصر » لأنهم كانوا حارصون على ابقاء طريقهم الى البحر المتوسط مفتوحا ، وانتصر البابليون وفتحوا سوريا وفلسطين وتقدموا نحو مصر ولكن موت « نابو بولاسر » أثناء ذلك جعل ولده « نبو خذ نصر » يعود مسرعا الى بابل .

ولما اعتلى « نبو خذ نصر » العرش بعد والده كانت البلاد قد بدأت في الازدهار واستقرت أمورها السياسية فوجه جهوده نحو تشييد العمائر وترميم المعابد وأن كان قد أرسل جيشا لتأديب مملكة يهودا حيث احتل بيت المقدس الا أن اليهود ثاروا بعد مضي عشر سنوات فسار اليهم ودخل بيت المقدس وخربها وفتك بأهلها .

وبعد أن حكم « نبو خذ نصر » نحو ٤٣ عاما خلفه على عرش بابل ملوك ضعاف فلم يكد ولده يحكم عامين حتى ثار عليه الكهنة لسماحة لليهود بممارسة طقوسهم الدينية بحرية وعلى نطاق واسع وقتلوه ونصبوا في مكانه أحد قواد والده وهو صهره في نفس الوقت ، ولم يقم هذا الأخير بما يستحق الذكر ثم مات بعد أن حكم ٤ سنوات وتبعه ابنه الصغير الذي لم يحكم سوى أسابيع قليلة ثم تدخل الكهنة ثانية وأبعدوه عن الحكم وعينوا في مكانه أحد أبناء طائفتهم ويدعى « نبو نهيد » ولكن هذا لم يستطع أن ينهض بأعباء الحكم ولم يقم الا ببعض النشاط العمراني وقد تحالف مع الملك الفارسي كورش ضد الميديين ثم غزاهم وغزا شمال بلاد العرب وانشغلت فارس بحروبها في جهات أخرى — وفي عهد خلفه ثار حاكم سوسه وانضم الى الفرس وبعدئذ هاجم ملك الفرس « كورش » بابل ودخلها وأخذ ملكها « نبو نهيد » أسيرا ، وهكذا زالت آخر سلالة بابلية وانتهى رمز الحضارة البابلية رغم بعض محاولات الفرس لاحياء مجد مدينة بابل ومن بعدهم حاول الاسكندر أن يجعلها مركز امبراطوريته ولكنها سرعان ما أهملت بعد وفاته وتحولت الى أطلال .



الشـــام



سورية
وجمهوريتي
لبنان وفلسطين
صفر ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ كيلومتر
تركيا
سورية
العراق
شبه الجزيرة العربية
البحر المتوسط
الاسكندرونة
انطاكية
اللاذقية
بانياس
حماه
حمص
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
حيفا
جبل الدروز
عمان
معان
دير الزور
وادي حوران

الاقليم السورى وحضاراته

يقصد بالاقليم السوري هنا تلك المساحة التى عرفها اليونان بهذا الاسم ، أى المساحة الواقعة بين جبال طوروس شمالا وسيناء جنوبا وبين البحر المتوسط غربا والبادية وبلاد النهرين شرقا .

ينقسم هذا الاقليم من ناحية التضاريس الى أقسام طولية يغلب فيها بوجه عام تناوب الأراضى المنخفضة والمرتفعات حيث نجد أن السهل الساحلى تتلوه سلسلة الجبال الغربية ويلى ذلك سهل البقاع ثم السلسلة التى تنتهى الى بادية الشام ومما تجدر الاشارة اليه أن كلا من هذه الأقسام يختلف فى اتساعه بين بقعة وأخرى .

وقد تأثر هذا الاقليم السورى فى تاريخه وحضارته ببضعة عوامل :

أولا : الموقع الجغرافى . تقع سورية بين القارات الثلاث الرئيسية للعالم القديم ، فهى تعد حلقة الاتصال فيما بينها ، ومع أن هذا الموقع أتاح لها أن تلعب دورا هاما فى التبادل التجارى وانتشار كثير من المظاهر الحضارية بين أقطار الشرق الأدنى الا أنه من جهة أخرى جعلها فى طريق الشعوب المجاورة ولذا فان البقايا البشرية التى عثر عليها فيها تمثل منذ أقدم العصور أجناسا مختلفة حتى أنه لا يمكن تحديد أول الأجناس التى استوطنت هذه المنطقة ، ومن جهة أخرى فان مجاورتها لأقدم مراكز الحضارة الفعالة فى العراق ومصر وآسيا الصغرى كانت من العوامل الهامة التى جعلتها تتأثر بتلك الدول وحضارتها .

ثانيا : وجود المناطق الصحراوية فى شرق سوريا وجنوبها جعلها المطمع الدائم للبدو من سكان هذه الأقاليم فكان فى صراع مع تلك العناصر .

ثالثا : التضاريس . فقد أشرنا أنها كانت تنقسم الى أقسام طولية مختلفة الاتساع والمظهر وأدى ذلك الى قيام وحدات منفصلة

فيها ، ولم تكن احــدى هذه الوحدات من الاتســاع بحيث تنشــأ دولة قوية يمكنها أن توحد سوريا بأكملها تحت سلطاتها ولذا كان توحيدها غالبا ما يتم بارادة سلطة قوية •

وفيما يلى موجز للأدوار التاريخية التى مر بها الأقليم السورى :

اولا : عصــور ما قبل التاريخ

١ ــ العصر الحجرى القــديم

(أ) العصر الحجرى القديم الأسفل :

وجــدت آثار حضاراته (التى تشبه مثيلاتها فى جهات العــالم الأخرى) فى كهوف عدلون (بين صيدا وصــور) وفى الكرمل وأم قطفة (شمال غرب البحر الميت) والزطية (شمال غرب بحيرة طبرية) ورأس شمرا (أوجاريت) ــ ولم يعثر على بقايا بشرية تمثل سكان هذا العصر •

(ب) العصر الحجرى القديم الأوسط :

عثر على أثاره فى كهــوف فى جبل الكرمل وفى جنوب الناصرة وفى شمال غرب طبرية ، وقــد عثر فى بعض هــذه الكهوف على بقايا بشرية تبين ان انســان هذا العصر كان خليطا من السلالات التى تمثل انســان نياندرتال وأنواع أخرى أرقى منه تكاد تشبه الانســان الحــديث ومن المحتمل أنه كان يأكل اللحــوم البشرية كمــا يستدل على ذلك من بقايا العظام البشرية التى وجدت واستخرجت مادتها النخاعية •

(ج) العصر الحجرى القديم الأعلى :

وقد وجدت آثاره فى كهوف انطلياس وفى حــوض نهر الكلب وفى كهف بالقرب من طبرية حيث عثر فيها ــ فضلا عن الأدوات المكروليثية ــ على بقايا هياكل عظميــة لأنواع مختلفة من الحيوانــات مثل الكركدن والضبع والثعلب والمــاعز والغزلان ، كما عثر على بقايا انســانية ومن المحتمل ان الانسان توصل فى هذه المرحلة الى معرفة ايقــاد النــار واستخدامها فى الطهى •

٢ ـ العصر الحجرى المتوسط

تمثل هـذا العصر حضارة تعرف باسم الحضارة الناطوفية (نسبة الى وادى النطـوف شمـال غربى القدس) ، وفيهـا ظلت الأدوات الميكرونيثية مستعملة بينما أخذت بعض الحيوانات التى كانت تعيش فى تلك الجهات فى الاختفاء نظرا لتغير الظروف المناخية • ويستدل من بقايا انسـان هـذا العصر على أنه كان قصير القامة مستدير الرأس ، ويرجح أنه عرف استئناس الحيوان والمرحلة البدائية فى الزراعة وان كان هـذا لا يستند الى دليل قوى حتى الآن ، واتخذ منازل عبارة عن أكواخ من الطين أو اللبن عثر على أقدم آثارها فى أريحا وتل الجديدة (شمـال سوريا) ورأس شمرا ـ ويتغالى بعض المؤرخين فيعتبر سورية أول من عرف بعض أسس الحضـارة التى انتقلت منها الى جهات أخرى من الشرق الأدنى ، وهو ما لا يتفق مع نشأة الحضـارات العظيمة فى مصر والعراق •

ومن المرجح أن الانسان ابتداء من هذا العصر اهتدى الى نوع من العقيدة بدليل ما عثر عليه من أوانى الطعام والتقدمات فى أماكن الدفن ، كما أخذ ينمى ملكته الفنية حيث أصبح يحاول محاكاة ما حوله من الكائنات بحفرها على العظم فى هيئة غزال وعلى تماثيل طينية لبعض الحيوانات الداجنة كانت فى مزار مقبرة فى أريحا •

٣ ـ العصر الحجرى الحـديث

يتمثل العصر الحجرى الحديث والعصر التالى له (بداية استخدام المعادن) فى عـدة مواقع فى سورية وفلسطين وقـد اصطلح كثير من الأثريين على اتخاذ منطقة العمق فى سـورية نموذجا للحضارات التى شاعت فى هـذا العصر وما تلاه نظرا لأن تلالها الكثيرة بطبقاتها المختلفة تحوى آثارا لكل من هذه الحضارات ويقابل هـذه المنطقة فى فلسطين منطقتى جريكو وتل الغسـول •

وقد وجدت آثار حضارة هذا العصر فى تل الجديد وساكجى جوزى

(فى أقصى الشمال) ومرسين فى قليقيا وهـذه يمكن وضعها ضمن آسيا الصغرى ولكنها أقرب الى الأقليم السورى ولذلك تلحق به ، وقد وجدت نظائر لهذه الآثار فى طبقتى العمق أ ، ب بسورية وطبقتى ١٠ ، ٩ فى جريكو بفلسطين ويمكن أن نعدها نظائر لحضارات حسونة بالعراق وسيالك الأول فى ايران • وهى تمثل مرحلة استقرار بالمعنى الصحيح اذ عثر فيها على بعض الفؤوس والمناجل الحجرية لا شك أنها استخدمت فى الزراعة كما عثر فيها على أجران ومخازن • أما الأوانى الفخارية التى عثر عليها فربما كانت متأثرة فى صناعتها بما كان سائدا فى العراق حيث يرى البعض أنها كانت متأثرة بحضارة سامراء التى تنتمى الى أواخر العصر الحجرى الحديث بينما يرى البعض الآخر أنها متأثرة بحضارة حلف التى تنتمى الى أوائل دور بداية استخدام المعادن •

٤ ـ دور بداية استخدام المعادن (عصر النحاس والحجر)

تتمثل حضارات أوائل هـذا الدور فى أوجاريت (قرقميش) وفى جزر وتل الغسول وفى الطبقة جـ بمنطقة العمق والطبقة ٨ بمنطقة جريكو • وقد عثر فيها على منازل من اللبن أساساتها من الحجر وكان الأطفال يدفنون عادة فى جرار تحت أرضيتها أما الشباب فكان بعضهم يحرق والبعض يدفن فى جرار على هيئة الجنين ، ومن المحتمل أن تحصينات المدن بدأت من هذا العصر وكانت الزراعة مقترنة بالرعى واستئناس الحيوان كالثور والماعز والغنم ، وفى هـذا العهد كانت تغلب على السكان صفات جنس البحر الأبيض المتوسط فى الجنوب أما فى الشمال فيغلب أنهم كانوا من الآرامنيين •

ويبدو أن سوريا خلال هذه المرحلة كانت حضارتها تساير حضارات العراق ومصر المناظرة لها وخاصة فى الجزء الأخير من عصر التمهيد للكتابة فى العراق وعصر ما قبل السلالات الحاكمة فى مصر ، أى حضارتى جمدة نصر وسماينة ، ويبدو التطور واضحا فى هـذه الحضارة اذ نجد ان الفخار أصبح يصنع بالعجلة وان اللبن أصبح يستخدم فى البناء وطليت الجدران بلون أبيض وزينت برسوم تمثل بعض الأشخاص

والآلهة — وقد توصل أهل هذه المرحلة الى صب المعادن حيث عثر على تماثيل نحاسية صغيرة مصبوبة كما تطورت الفنون عامة ويتجلى ذلك بوضـــوح فى زخرفة الأوانى بطلاء زجاجى .

ثانيا — العصـــور التاريخيـــة

سبق ان أشرنا الى ان ظروف الأقليم السورى الجغرافية لم تيسر قيام دولة قوية فيه وان الوحدات التى نشأت به لم تتحد الا بادارة سلطة خارجية — والواقع ان كل مـــا وصلنا من معلومـــات عن طريق البحوث التاريخية والأثرية يوحى بأن ســـورية ظلت فى معظم فترات تاريخهـــا ميدانا لصراع القوى المجـــاورة مع وجـــود بعض دويلات المدن التى استمرت مستعصية على الغزاة فى الجزء الأكبر من تاريخها غير أنها هى الأخرى كانت تستسلم فى النهاية تحت ضغط القوى الفتية التى تغزوها — ومن الممكن القول اجمالا بأن الاقليم الســـورى كان فى أقدم عصوره التاريخية على علاقات تجارية مع مصر التى كثيرا ما كانت تنشر نفوذها به ، وليس من المستبعد أن تكون جالية مصرية قد أقامت فى جبيل (بيبلوس) بلبنان فى زمن الأسرة الرابعة المصرية لملاحظة التبادل التجارى بينها وبين مصر كما ان نصوص الأسرة الخامسة تدل على قيام حمـــلات حربية مصرية الى تلك الجهـــات أو على الأقل بعثات تجارية مسلحة — ومن المحتمل ان بعض عناصر الأقليم السورى استطاعت ان تهدد الحدود المصرية بل ويرجح انها فى نهاية عهد الأسرة الســـادسة تمكنت من بسط نفوذها على الدلتا ، وما لبث ان حدث رد فعل فى عهد الأسرة الثانيـــة عشرة اذ يبدو ان ملوكها كان لديهم شيء من النفوذ فى جنوب الاقليم السورى كما أنهم استأنفوا النشاط التجارى مع ســـواحله الشمالية وكانت لهم علاقات ودية مع بعض الامارات الأخرى .

والظاهر ان ظروفا سيئة حلت بالاقليم السورى خلال هذه الفترة اذ ان بعض القبائل الســـورية جاءت فى عهـــد سنوسرت الثانى تطلب السماح لها بالاستقرار فى مصر ويرجع سبب ذلك اما لحدوث قحط فى هذه الجهات أو لتعرضها لغزوات بعض الدويلات المجاورة وخاصة لأن الأموريين أخذوا ينتشرون الى أواسط سوريا وجنوبها خلال هـــذه

الفترة تقريبا بعد ان كانوا قد تركزوا فترة فى سوريا الشمالية أو لتدفق بعض سكان شمال ووسط سوريا عليها من جراء ضغط هجرات بعض العناصر الهندو اوروبية الرعوية التى جاءت بالايرانيين والحوريين وغيرهم ممن انتشروا فى أعالى دجلة والفرات ثم زحفوا الى سوريا الشمالية — والظاهر ان ازدياد هذا الضغط قد أدى الى زيادة تسلل العناصر الآسيوية الى مصر وانتشارها وازدياد نفوذها تدريجيا حتى استطاعت أن تستولى على السلطة فيها وحكمتها فى أعقاب الدولة الوسطى — وقد عرف هؤلاء فى التاريخ باسم الهكسوس وهم الذين تمكن المصريون بعد ذلك من طردهم وتعقبهم فى فلسطين الى ان قضوا على سلطانهم .

وظل الاقليم السورى خاضعا للسلطان المصرى فى معظم عهد الأسرة الثامنة عشرة ولو ان مملكة قوية عرفت باسم مملكة ميتانى نشأت فى شماله الشرقى (١٤٠٠ — ١٢٠٠ ق . م) الا ان نفوذها لم يتعد ذلك الى مناطق النفوذ المصرى بل وكانت علاقاتها طيبة مع مصر وارتبط ملوكها بروابط المصاهرة مع الفراعنة — وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة تقاسم الحيثيون والمصريون النفوذ فى سوريا اذ أصبحت الأجزاء الشمالية منها فى قبضة الحيثيين بينما اقتصر النفوذ المصرى على جنوبها ، ولم يستمر الحال كذلك اذ انتهت الأسرة التاسعة عشرة نهاية سيئة فأعلن حكام الأقاليم استقلالهم واغتصب أحد كبار موظفى البلاط السوريين العرش فترة الى ان تمكن « ست نخت » مؤسس الأسرة العشرين من طرد الغاصب السورى واعتلاء العرش فأعاد الأمن والاستقرار فى البلاد ، وفى عهد هذه الأسرة الأخيرة حدثت اغارات مفاجئة من شعوب هندو اوربية عرفت باسم « شعوب البحر » على آسيا الصغرى فأسقطت دولة الحيثيين وواصلت تقدمها فى شمال سوريا وزحفت جنوبا حتى أصبحت تهدد مصر ولكن رمسيس الثالث — ثانى ملوك هذه الأسرة — تصدى لهم وهزمهم برا وبحرا فى معركة فاصلة ، وبذلك احتفظ بشىء من النفوذ المصرى فى سوريا ، وكذلك ظلت بعض الولايات الحيثية قائمة فترة بعد ذلك فى شمال سوريا الى ان قضى عليها نهائيا سرجون الثانى ملك آشور فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد — و عهد رمسيس

الثالث أخذ نفوذ مصر يزول تدريجيا من سوريا الى ان انتهى تماما فى أواخر الأسرة العشرين ولم تقم له قائمة بعد ذلك الا فى فترات متباعدة ولمدة قصيرة من عهدى الاسرتين الثانية والعشرين والسادسة والعشرين ثم أصبحت سوريا ومصر نفسها بعد ذلك جزءا من الامبراطورية الفارسية •

ولا شك فى ان ظروف الأقليم السورى الجغرافية لا تجعل من مصر الدولة الوحيدة التى كان على علاقات معها ، بل وربما كانت بعض المناطق الأخرى أيسر اتصالا به وعلاقاته معها أبعد مدى ، فمن المعروف ان المنطقة بين سهول سوريا الشمالية وحوض نهر دجلة الأعلى كانت كثيفة السكان منذ أقدم العصور ، يسهل الانتقال عبرها بين بلاد النهرين والأقليم السورى ولذا كانت بمثابة حلقة الاتصال بينهما مما أدى الى تشابه بعض حضارتهما فى العصر قبل التاريخى والى توسع الدول القوية التى تنشأ فى أى منهما فى أراضى الآخر ، وهكذا نجد ان « لوجال زاجيرى » ملك « أوما » الذى كون امبراطورية فى بلاد النهرين يدعى بأنه غزا سورية • كذلك وصل « سرجون » الأكدى فى فتوحاته الى لبنان ، وما ان تحررت أرض الجزيرة وشمال سورية من الأكديين حتى خضع الجزء الشمالى من سورية للحوريين ، وبعدئذ تمكن « نرام سين » أحد خلفاء سرجون من السير فى فتوحاته شمالا حتى أخضع حلب ولم يقتصر نشاط العلاقات بين القطرين على سياسة التوسع فقد قامت بينهما علاقات تجارية من أقدم العصور وخير مثال لذلك ما قام به « جوديا » حاكم لجش من احضار خشب الأرز من لبنان •

وعندما ازدادت قوة الساميين الغربيين « الأموريين » الذين كانوا يقطنون فى الاقليم السورى زحفوا على طول نهر الفرات وأصبحوا حكاما لكثير من بقاع بلاد النهرين ولكن لم يلبث « حمورابى » (سادس ملوك الأسرة البابلية الأولى) ان أخضعهم لسلطان بابل ولو انه هو نفسه كان أصلا من الأموريين ، وما ان انتقلت السيادة فى بلاد النهرين الى الاشوريين حتى وجدوا ان الاراميين أصبحوا يتركزون على الجانب الأيمن للفرات ولذا عمد ملوكهم الأقوياء الى فرض سلطانهم على هؤلاء الاراميين بل وتوسعوا غربا حتى وصلوا الى البحر المتوسط ، ولم تكد

بضعة الدويلات السورية القائمة ان تفيق من ضربات الاشوريين المتلاحقة بعد سقوط آشور حتى تعرضت من جديد لغزوات الكلدانيين •

ولم تكن آسيا الصغرى فى علاقاتها بالاقليم السورى أقل شأنا من غيرها ، بل ويمكن ان نعد الجزء الجنوبى منها وهو الواقع خلف جبال طوروس امتدادا للاقليم السورى ولذلك نجد تشابها فى حضارتيهما منذ العصر الحجرى الحديث ، وقد وجدت دولة الحيثيين « سكان آسيا الصغرى » فرصة للتوسع فى الأقليم السورى منذ القرن الرابع عشر ق • م واشتد التنافس بينهما وبين المصريين من أجل السيطرة عليه ثم تكونت فيه عدة ممالك حيثية صغيرة خلال القرن الحادى عشر ق•م•

وهكذا نجد ان الأقليم السورى كان ميدانا لصراع دول وشعوب مختلفة أثرت فى تاريخه أيما تأثير على ان أهم العناصر الفعالة التى أثرت فى كيان وتاريخ هذا الاقليم يمكن حصرها فى العناصر التالية •

الشعوب التى أثرت فى تاريخ سورية وحضارتها

أولا ــ العناصر السامية :

وقد يطلق عليها اسم الساميين الغربيين تمييزا لها عن العناصر السامية التى ذهبت الى بلاد النهرين وعرفت باسم الساميين الشرقيين ، وقد وفدت هذه العناصر الى الاقليم السورى فى موجات متتابعة واستقرت فى أنحاء مختلفة منه وظلت سائدة خلال الجزء الأكبر من تاريخ سورية القديم وأهم جماعات هذه العناصر هى :

١ ــ الأموريون :

وهم أول شعب سامى عاش فى سورية ، جاءوا من بلاد العرب فى هجرة واحدة مع الكنعانيين فى حوالى منتصف الألف الثالث ق • م وأخذوا يتجولون فى شمال سورية قبل أن يستقر بهم المقام فى أواسط حوض الفرات ، وكانت هذه المنطقة تسكنها جماعات سومرية عند وفود الأموريين ثم ما لبث هؤلاء ان أصبحوا يمثلون غالبية السكان ، وبعد انتصار سرجون الأول (ملك أكدا) على لوجال زاجيرى حوالى سنة ٢٣٧١ ق•م

اجتاح بلاد الأموريين — ولكن ما ان حل القرن العشرين قبل الميلاد حتى أصبحت منطقة الفرات الأوسط أمورية فى سكانها وحضارتها وحكومتها حيث أسسوا سلالات حاكمة فى أجزاء مختلفة من بلاد النهرين وفى معظم أنحاء سورية ، والواقع ان اماراتهم كانت منتشرة من أشور شمالا الى لارسا جنوبا ومن البحر المتوسط غربا الى مرتفعات عيلام شرقا ، والظاهر ان بعض الجهات التى قطنوها فى أول الأمر تعرضت لحملة مصرية فى عهد ساحو رع أحد ملوك الأسرة الخامسة حيث ان النقوش التى تركها على جدران معبده تبين انتصاره على آسيويين مثلوا بملامح تغلب فيها الصفات الارمنية (رأس مستديرة وأنف ضخم) وهى صفات كانت سائدة بين الأموريين أيضا ، ومن المرجح ان بعض مواطنهم تعرضت لبعض المتاعب فجاءت جماعات منهم تطلب الاستقرار فى مصر ، ويتضح هذا من نقوش مقبرة « خنوم حوتب » أحد أشراف مصر الوسطى فى عهد سنوسرت الثانى من السلالة الثانية عشرة حيث مثلت القبائل التى لها نفس الملامح وقد جاءت تطلب السماح لها بالاقامة فى مصر — وربما كان الأموريون يمثلون الغالبية بين الشعوب التى اجتاحت سورية وتسللت الى مصر وسيطرت عليها وهى التى عرفت باسم الهكسوس .

وقد شهد مطلع النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد تحولا فى النشاط الدولى الى سورية الوسطى التى كان الأموريون يلعبون الدور الرئيسى فيها ، لأن الدولة الحيثية أصبحت من القوة بحيث أخضعت الجزء الشمالى من سورية لسلطانها بعد أن كانت تسيطر عليه مملكة يامخاد الأمورية التى كانت عاصمتها حلب — وفى تلك الأثناء كانت مصر قد أخذت تبنى امبراطوريتها فى عهد الدولة الحديثة ووقع جزء من سورية تحت سيطرتها ، وهكذا انحصرت بقية الامارات الأمورية فى سورية الوسطى وخاصة فى الجزء الشمالى من لبنان والاقليم الداخلى حول دمشق — وظلت هذه الامارات تتأرجح بين الخضوع للحيثيين أو الولاء لمصر ويبدو ان وقوع الامارات الأمورية بين الأملاك الحيثية فى الشمال والأملاك المصرية فى الجنوب قد أكسب حكامها مهارة سياسية وادراكا لما يجرى من أحداث وان اختلفت وسائل بعضهم عن وسائل البعض الآخر فى استغلال الظروف فمنهم من أعلن استقلاله ومنهم من

تظاهر بالولاء للمصريين وفى نفس الوقت يبدى تعاونه مع الحيثيين بينما يزيد فى واقع الأمر من رقعة أملاكه ومن أمثلة هؤلاء عن عشراتا وولده عزيرو اللذان حكما منطقة أعالى نهر العاصى ومن الحكام من ظل على ولائه لمصر رغم تعرضه للضغط والمتاعب من جيرانه مثل أبى ملكى أمير صور ، رب عدى حاكم ببلوص . وظل الحيثيون فى تقدمهم بينما أخذت حالة المستعمرات المصرية تزداد سوءاء فى أواخر عهد الأسرة الثامنة عشر وانكمشت الممتلكات المصرية حتى أصبحت قاصرة على الجزء الجنوبى من سوريا وأخذ الحيثيون يسيطرون على شمال سورية ووسطها الى أن انتهى نشاط الأموريين منهما واقتصر على جنوبها بينما ظل الكنعانيون يسكنون السواحل — وبعد مضى بعض الوقت استطاع الآراميون والعبرانيون الذين وفدوا الى سوريا بين ١٥٠٠ ، ١٢٠٠ ق.م ان ينتزعوا السيادة من الأموريين والكنعانيين كما استولوا على المناطق السورية الواقعة فى شرقى نهر الاردن .

حضارة الأموريين :

وحينما وفد الأموريون الى الأقليم السورى كانوا عبارة عن جماعات بدوية لا تعرف سكنى المدن ولا الزراعة ، ولكن بعد ان استقروا فى هذا الأقليم أخذوا عن أهله مظاهر الحضارة المختلفة وعرفوا الزراعة وأسسوا دويلات قوية من أهمها تلك التى كانت فى حوض الفرات الأوسط وكانت عاصمتها ، « مارى » وبلغ من قوة هذه الدويلات ان حاولت التوسع فى بلاد النهرين ، ولذا نجد أن أحد ملوك أسرة أور الثالثة قام بتشييد سور فى أور أطلق عليه اسم « الجدار الذى يصد الأموريين » كما أن آخر ملوك هذه الأسرة افتخر بانتصاره عليهم بقوله « لقد أخضعت مارتو الذين فى قوة العاصفة » .

ومع أن الأموريين فى حضارتهم قد أخذوا الكثير عن أهل المنطقة السابقين وعن جيرانهم غير ان هؤلاء بالمثل تأثروا بمؤثرات امورية ، فمثلا أخذ البابليون والآشوريون فى قوانينهم بمبدأ « العين بالعين والسن بالسن » الذى انتشر بين الجماعات السامية ومن بينها الأموريين . كما أنهم كذلك عبدوا بعض الآلهة المورية ، وقد [illegible] الى [illegible]

حضارية عظيمة كما يستدل على ذلك من الآثار التى عثر عليها فى عاصمتهم ماري ، فقد أمكن إنكشف عن بقايا قصر ملكى كان يشغل مساحة تزيد على خمسة أفـدنة ويحتوى على أكثر من ٣٠٠ حجرة زيست جدران الكثير منها بصـور ملونة بألوان زاهية ويشمل عددا من الساحات والحمامات وألحقت به بعض الدائر الحكومية ، كما عثر على أكثر من ٢٠٠٠٠ لـوح من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسمارى وهى تتضمن وثائق تتناول مختلف الشئون وتلقى كثيرا من الضوء على النواحى السياسية والادارية والاقتصادية والدينية التى سادت فى هـذه المنطقة وفى مناطق أخرى من العالم القديم ، فمثلا نعلم من هـذه الوثائق ان مملكة أمورية اسمها « يمخاد » كانت عاصمتها « حلب » وان « جبيل » كانت مركزا صناعيا هاما للنسيج ، « وقطنه » كانت مركزا تجاريا ، كذلك عرفنا أن « زمرى ليم » كان يعاصر الملك البابلى « حمورابى » وأنه كان آخر ملوك مارى •

ورغم هـذه الحضارة فان الأموريين لم يتركوا كتابات هامة بلغتهم بل اقتصروا فى تدوينهم بها على أسماء ملوكهم وحكامهم وبعض الأماكن فى الأقليم السـورى ، أما أهم مدوناتهم فقد كتبت بالأكدية التى شـاع استخدامها كلغة تدوين رسمية •

ويبدو أن وقوع الأموريين بين آسيا الصغرى فى الشمال ومصر فى الجنوب وبلاد النهرين فى الشرق قد أكسبتهم مهارة سياسية فى بعض الظروف وخاصة عندما أخذ الحيثيون (فى آسيا الصغرى) فى القوة وبدأت مصر فى الضعف ، فقد أخذ بعض الحكام الأموريين الذين كانوا يخضعون لمصر فيما سبق يستغلون الظروف ويعلنون استقلالهم ، ومنهم من تظاهر بالولاء للمصريين وفى نفس الوقت كان يتعاون مع الحيثيين فى غزوهم لبعض المناطق بينما يستولى لنفسه على بعض المناطق الأخرى ، ويبدو ذلك واضحا فى أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية •

أما عن ديانة الأموريين فقد وجدت لديهم معبودات مختلفة منهـا الاله « أمورو » (مارتو) الذى عرفت عبادته فى بلاد النهرين وكانت زوجته الاله « عشتار » آلهة الحب والقوة التى يرجح أنها مقتبسـة من

الآلهة البابلية عشتار — وقد وجدت فى أنقاض قصر مارى الذى أشرنا اليه سبق صورة كانت تزين أحد الجدران وفيها يرى الملك الذى يرجح أنه « زمرى لم » وهو يتسلم شارات الملك من هذه الآلهة ومن الاله « حدد » الذى عرف فى بعد باسم « أداد » اله المطر والزوابع وكان يطلق عليه أحيانا اسم آخر هو « رمان » (رمانو) أى اله الرعد ، ويحتمل انه هو الذى عرف بعد ذلك فى بعض جهات سوريا باسم « بعل » — ومن آلهتهم أيضا الاله « رشف » وقد عبده الفينيقيون وعرفه المصريون فى عهد الدولة الحديثة • ومن معبوداتهم التى انتقلت الى بلاد النهرين « داجون » أو « داجان » وكان من آلهة الخصب — ومن المحتمل أيضا انهم هم الذين أدخلوا الى الأقليم السورى عادة تقديم الابن البكر كقربان للالهة وعادة تضحية أطفال فى أسس المبانى ، وهذه الأخيرة ظلت الى زمن العبرانيين •

٢ — الكنعانيون :

أشرنا الى ان هؤلاء وفدوا مع الأموريين فى هجرة واحدة ولكن هؤلاء الكنعانيين استقروا على الساحل حيث أطلق عليهم اليونان اسم « الفينيقيين » ، ولم تمكنهم طبيعة المنطقة التى عاشوا فيها من تأسيس دولة قوية موحدة بل انتظموا فى جماعات صغيرة يحكم كلا منها ملك ويتركزون حول مدن محصنة ، تحميها أسوار وأبراج قوية تلجأ اليها تلك الجماعات عند مهاجمتها ، وبعض هذه الجماعات كانت تحتل — الى جانب أماكن استقرارها على الساحل — جزرا صغيرة فى مواجهتها حتى اذا ما اشتد الهجوم عليها التجأت الى تلك الجزر التى كانت محصنة هى الأخرى ، أى أن هذه الجماعات كانت تتبع وسائل دفاع مزدوجة بفضلها استطاعت بعض مدنهم ان تقاوم طويلا هجمات كثيرة تعرضت لها ووقفت صامدة أمام الفاتحين رغم حصارهم لها سنوات متتالية •

وكثيرا ما كان يكثر التطاحن بين هذه المدن وتنشب بينها الحروب ومع ذلك فانها كثيرا ما كانت تتحد أمام المهاجمين من الشعوب الأخرى ، وقد تحصل أحداها على الزعامة ، فتتمتع بنوع من السيادة

على الآخرين • ولكن هذه الأحلاف كانت لا تستمر طويلا وخاصة لأن بعض المدن كانت تحاول الانتفاع على حساب البعض الآخر •

وكان الفينيقيون أول أمة بحرية فى التاريخ أخذوا يجوبون البحار ويؤسسون الطرق البحرية بين الشرق والغرب وأنشأوا المستعمرات ونشروا حضارتهم وحضارات غيرهم بين مختلف الجهات ، وكانوا تجارا نموذجيين ألفت الشعوب القديمة رؤية سفنهم ولذا نجدها ممثلة فى نقوش المصريين والآشوريين — ومن أهم ما قاموا به الدوران حول افريقية فى عهد نكاو (ثانى ملوك الأسرة السادسة والعشرين المصرية) كما ينسب اليهم أنهم وصلوا الى بريطانيا وكانوا يتاجرون معا اذ كانوا يحصلون منها على القصدير فى نظير الخزف والملح والأوانى النحاسية — وأهم المستعمرات التى أسسوها كانت فى قبرص وصقلية وسردينيا وأسبانيا واوتيكا (تونس) وقرطاجنة وبلاد اليونان — وكان قرطاجة أكثر هذه المستعمرات نجاحا فقد تطورت حتى أصبحت تنافس الوطن الأم فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وكونت منذ القرن السادس ق • م امبراطورية واسعة امتدت من حدود ليبيا الى جبل طارق شملت بعض جزر البحر المتوسط حتى نازعت روما السيادة على هذا البحر ، وبلغ من تسلطها عليه أن تردد القول بأن الرومان لم يكونوا يستطيعون غسل أيديهم فى مياهه دون اذن من قرطاجة • وقامت الحرب البونية التى استمرت نحوا من مائة عام (٢٤٦ — ١٤٦ ق•م) بين روما وقرطاجة وفيها قام هانيبال ابن هملكار ملك قرطاجة بحملة الى ايطاليا اخترق فيها أسبانيا وعبر الألب وحارب الرومان على الأرض الايطالية نحوا من ١٥ سنة وهاجم روما نفسها ولكنه استدعى أثناء ذلك للدفاع عن قرطاجة التى هاجمها الرومان بحملة بحرية كبرى ، وقد هزم القرطاجيون فى موقعة زاما الحاسمة سنة ٢٠٢ ق•م ، وفى سنة ١٩٦ ق•م هرب هانيبال الى صور حيث انضم الى ملكها انطيوخس فى حربه ضد روما ولكنه هزم مرة أخرى وانتحر فى آسيا الصغرى سنة ١٨٣ ق•م — ورغم هزيمة قرطاجة فانها سرعان ما ازدهرت من جديد مما أثار حسد الرومان فتحرشوا بها وهاجموها وانتهت الحرب بين روما وقرطاجة بأن دمرت هذه الأخيرة على يد الرومان حيث أشعلوا فيها النيران لمدة سبعة عشر يوما حتى أتت عليها فى سنة ١٤٦ ق • م •

ويبدو أن الفينيقيين كانوا أول من استعمل الأبجدية الراقية التى لا شك فى أنهم اقتبسوها من الكتابة المصرية كما أنهم تأثروا بالمصريين فى كثير من أمورهم كالآداب والعقائد وفن العمارة وعادات الدفن وغير ذلك ، اذ أن من المرجح ان النفوذ المصرى كان سائدا فى الساحل الفينيقى من حوالى ٢٤٠٠ — ١٢٠٠ ق ٠ م وكانت أول مدينة تحتل مركزا رئيسيا فى العلاقات المصرية الفينيقية هى جبيل (بيلوص) حيث كانت مصر تستورد منها خشب الأرز والخمور والزيوت فى نظير الذهب والمصنوعات المعدنية وورق البردى ، وقد دخلت سوريا تحت سلطان فراعنة الدولة الحديثة على العموم ولكنها خرجت عن سيادتها بعد ذلك ٠

ولم تكن تأثير بلاد النهرين على سوريا أقل من التأثير المصرى ، وكان ملوك بلاد النهرين الأقويان يحصلون على خشب الأرز من هذا الاقليم كما حدث فى عهد جوديا ملك لجش ، بل ويحتمل ان سوريا الشمالية خضعت لسرجون الأول ملك أكد والى نرام سين (ثالث خلفائه حوالى ٢٢٣٨ ق٠م ، على أن خضوعها بصفة حاسمة لدول بلاد النهرين لم يحدث الا فى عهد الآشوريين حينما انهارت الدولة الحيثية فقد استطاع تيجلات بيليسر الأول ملك آشور أن يفرض سلطانه عليها ، وما لبث الاراميون ان غزوا ممتلكاته فيها ولكن آشور ناصر بال (أحد خلفائه) تمكن من استرجاعها — وفى عهد وريثه شلما نصر الثالث تكون حلف ضده من المدن السورية ومن ملك دمشق (٨٥٣ ق ٠ م) ولكنه انتصر عليه الا ان انتصاره لم يكن حاسما ٠

وحينما اعتلى تيجلات بيليسر الثالث عشر عرش آشور قام بعدة حملات ٠ لفتح سورية ثم استطاع ولده شلما نصر الخامس ان يجتاح المدن الفينيقية فيما عدا صور ، ولكن فى عهد سناحريب تمكنت آشور من الاستيلاء على معظم الأقليم السورى بما فى ذلك صور نفسها — وفى عهد خلفه أسر حدون قامت صيدا بالثورة [illegible] خربها وقتل ملكها وأخضع بعض مدن فينيقية أخرى كانت صور تتزعمها وبعدئذ استطاعت صور أن تتخلص من السيادة الآشورية فترة قصيرة الا أن أسر حدون وخلفه آشور بانيبال تمكنا فى النهاية من مد امراطوريتها الى البحر المتوسط بل والى مصر أيضا ٠

وحينما أصبح الكلدانيون حكام بابل بعد آشور ادعوا انهم ورثوا السيطرة على سوريا — أما مصر فقد تخلصت من سيادة بلاد النهرين وأرادت ان تفرض سيادتها على سوريا ، وكانت المدن الفينيقية اميل للاعتراف بسلطان مصر منها الى الاعتراف بالسيادة البابلية — وفى ٥٨٧ ق • م وصل نبو خذ نصر ملك بابل الى سورية وأعاد فتح البلاد الفينيقية وفلسطين وحاصر صور ثلاثة عشر عاما حتى خضعت له •

حضارة الكنعانيين :

ونظرا لطبيعة الاقليم الذى عاشوا فيه ولتعرضه بين حين وآخر لتوسع الدول الكبرى المجاورة لم ينجح الكنعانيون فى تأسيس دولة قوية موحدة بل انتظموا فى جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك ويستقرون حول مدن محصنة تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها ، وكانت هذه المدن هى العواصم التى يلجأ اليها أهل المناطق الزراعية ويحتمون داخل أسوارها عند الخطر — وكثيرا ما كان يحدث النزاع بين تلك المدن فكانت أكثرها تفوقا تلك التى كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية ؛ وبعضها كان يشغل موقعين أحدهما على الساحل والأخير يمثل جزرا صغيرة فى مواجهته يلجأون اليها عند اشتداد الخطر — وبالطبع كانت المدن المنيعة أقدر من غيرها على البقاء والازدهار ، ومن جهة أخرى كثيرا ما كانت هذه المدن تتفق فيما بينها لتحقيق مصالح مشتركة أو للتحالف ضد أخطار خارجية •

ومع أن الكنعانيين لم يتمكنوا من انشاء دول كبيرة كما أشرنا الا أنهم فرضوا شهرتهم فى التاريخ لما امتازوا به من نشاط فى الميدان الاقتصادى ، فقد عملوا على تنمية زراعتهم وصناعتهم ونشطوا فى الاتجار خارج وطنهم وأسسوا مستعمرات تجارية فى مناطق بعيدة ، ففى ميدان الزراعة لم يتركوا بقعة صالحة دون استغلال حتى أنهم زرعوا السفوح الجبلية • والى جانب الزراعة كانوا يربون الأغنام والخنازير [illegible] فى صناعة الفخار كما برعوا فى صناعة النسيج والزجاج — وقد عرفت لديهم الأقمشة الصوفية منذ منتصف الألف الثانى قبل الميلاد على الأقل ، ونقلوا زراعة القطن من آشور وعرفوا نسيج الكتان كما

عرفوا الحرير منذ القرن السادس قبل الميلاد تقريبا — وقد ارتبطت حرفة صيد الأسماك بطريق غير مباشر بشهرة منسوجاتهم لأن الصبغة باللون الأحمر التى اشتهروا بها كانوا يستخرجون سائلها من أصداف تكثر على سواحل البحر ، وكانوا لا يتاجرون فى هذا السائل بل فى المنسوجات المصبوغة — ولم يقتصر استخراجهم لهذه المادة على الأصداف الموجودة على سواحلهم بل كانوا يجلبونها أيضا من الموانى البعيدة ، وبلغ من شهرة أقمشتهم المصبوغة بها والتى أصبحت تعرف باسم « الارجوان » أن ارتفعت أثمانها حتى أصبحت رمزا للملوك فيقال عنهم « مولود فى الارجوان » كما أنها كانت تستعمل فى أزياء بعض ذوى المكانة مثل رؤساء الكهنة فى بعض الجهات — والى جانب الصبغة بهذا اللون عرف الفينيقيون صبغة أخرى لونها قرمزى استخرجوا مادتها من حشرات كانت تعيش على أشجار السنديان حول الساحل وذلك بوضع هذه الحشرات بعد تجفيفها فى بعض الأحماض .

ومع ان الفينيقيين نشطوا فى التنقل بين مختلف الأقطار وقاموا بدور عظيم فى تقبل مختلف السلع والثقافات الا أن ما خلفوه من مدونات لا يتناسب مع الدور الذى قاموا به وربما يرجع ذلك الى فناء أوراق البردى التى كانوا يدونون عليها وكانوا يجلبونها من مصر ، ومع هذا فان القليل الذى عثر عليه من نقوشهم ومدوناتهم يدل على شأنهم فى كثير من المعارف — ومن ذلك أيضا نستطيع ان نستنتج ان المدن الفينيقية كان يحكمها ملوك يتم اختيارهم من بعض الأسر النبيلة أو التى تنتمى الى أصل مقدس ، ولكن سلطان الملك كان يحدده مجلس للشيوخ مؤلف من تجار المدينة .

ومن الملاحظ ان أصحاب الحرف كانوا يدينون بالولاء لرؤساء يمثلون طوائفهم المختلفة ويطلق على رئيس كل حرفة لقب « رب » الذى يدير أمور أهل المعرفة ويتولى رعاية شئونهم — ومع أن شهرة الفينيقيين الرئيسية كانت لتجارتهم فى الملاحة الا أنهم تفننوا فى استغلال كل ما يمكن أن تجود به بلادهم من موارد ، وقد اشتهرت أخشاب أشجارهم بالجودة ، خاصة خشب الأرز والصنوبر ولذا فرض على

جيراتهم الاتصال بهم والاتجار معهم للحصول على هذا الخشب الثمين . كمـا أنه من المرجح ان زيت الصنوبر ونشاراته كانا يستخدمان فى التحنيط ، كذلك استخدمت أخشـاب الصنوبر فى بنـاء قصر ومعبد « سليمان » كما استخدمها الأشوريون أيضا فى بعض قصورهم وخاصة من عهد « سرجون الثانى » .

أما فى مجال الزراعة فقـد وصلوا الى مرحلة واقية واستخدموا المحراث ، بل وكانوا أحيانا يستغلون الفيل كحيوان لجر المحراث فى الزراعات الكبيرة ، وأكثر وسائل النقل استعمالا عندهم كانت عربات ذات عجلتين تجرها أربعة خيول — وربما كان الحمار يستعمل فى الخدمات بدل الخيل قبل دخول الحصان أيام الهكسوس — وكان استخلاص الحب من سنابله يتم اما بأن تمرر على السنابل لوحة خشبية بأسفلها شظايا صوانية أو أن تستعمل كأداة مركبة من الخشب لها عجل بأسنان من حديد أو أن يداس المحصول بأرجل الحيوانات — وتطحن الحبوب بالرحى ، وقد عرف الفينيقيون صناعة النبيذ واستخراج الزيوت ، وغير ذلك من الصناعات الزراعيـة .

وربما كان نبوغ الفينيقيين فى الملاحة هو سبب شهرتهم الحقيقية ، وقـد وصل نشاطهم الى أسبانيا وبريطانيا ، وبلغ من حذقهم أنهم كانوا يصنعون السفن لحساب الدول والشعوب الأخرى ، فقـد أمدوا « سناحريب » ملك آشـور بالسفن التى غزا بها دويلات جنوب العراق كما أمدوا سليمان بالسفن واستخـدمهم « نكاو » (الأسرة ٢٦) فى الدوران حـول افريقيا وقـد أتموا رحلتهم فى ثلاث سنوات وقد أخذوا يكونون فى الأماكن التى وصلوا اليها للتجارة مراكز تجـارية سرعـان ما تحولت الى مستعمرات تجارية كانت أعظمها « قرطاجة » التى سرعان ما ازدهرت بعد تأسيسها ثم أصبحت لها سيادة تجارية وسياسية فكونت امبراطورية تمتد من حدود ليبيـا الى جبل طارق وضمت بعض جزر البحر المتوسط اليها ثم تنافست مع روما من أجل السيادة على البحر المتوسط ونشبت بينهمـا حروب دامت أكثر من مائة عـام انتهت بأن أحرقها الرومان وحولوها الى كومة من الرماد .

ويبدو أن الكنعانيين نشطوا فى صناعة المعادن حتى ينسب اليهم أنهم وصلوا الى صناعة الفولاذ واشتهروا بالصباغة ولذا كانوا يقومون برحلات عديدة لجلب المعادن حتى ان « هوميروس » أشار الى حذق أهل « صيدا » بصفة خاصة فى الصباغة •

ومع ان الفينيقين فى فنونهم اقتبسوا فنون الشعوب المجاورة الا أنهم مزجوا فى كثير من الحالات بين هذه الفنون جميعا حتى جعلوا منها فنا فينيقيا متميزا غير أنهم فى بعض الحالات كانوا يقتبسون اقتباسا كليا — ولا يمكننا ان نقتصر فى دراسة الفن الفينيقى على ما وجد من آثاره على الساحل السورى وحده ، ولكن لابد من دراسة كل آثارهم فى المناطق الأخرى ، وكمثال للاقتباس الكلى نلاحظ فى بعض أختامهم وتوابيتهم طابعا مصريا صرفا •

ومع ان اختراع الحروف الأبجدية ينسب الى الفينيقين حيث نقلها عنهم اليونان ثم شاع استعمالها الا أن من الممكن ان نعتبر ان الهجائية وجدت أولا فى الهيروغليفية حيث كانت هناك رموز تدل على حروف الى جانب الرموز المستعملة ككلمات أو مقاطع وكل ما قام به الفينيقيون هو أنهم طوروا الفكرة واستخدموا الرموز للدلالة على حروف فقط ؛ ومع هذا فان اللغة الفينيقية لم تصبح لغة دولية وانما كانت الأكدية هى التى تعد لغة دولية رسمية • ومن التراث الأدبى الذى تركه الفينيقيون اقتبس العبرانيون كثيرا من تراثهم وأدخلوه فى كتاباتهم المقدسة وخاصة بعض الأساطير التى تدور حول الصراع بين الخصب والجفاف أو بين الانبات والموت ثم البعث أو عودة الحياة وان كنا نعتقد بأن هذه كلها أصلا يمكن ارجاعها الى أسطورة أوزير التى انتشرت فى مصر •

أما ديانة الكنعانيين فشأنه شأن معظم الديانات القديمة تدور حول تقديس مظاهر الكون وعبادة الطبيعة ؛ فالجو كان يمثل فى نظرهم الاله الأب ، بينما تمثل الأرض الآلهة الأم — اما الاله الأعلى فكان يعرف باسم « يل » أو « عليان » وهو الذى يوحد مع الاله « بعل » وكان يعد اله المطر والمحاصيل . وزوجته كانت الآلهة « عاشرة » أو

« عاثرة » أو « عشـــترت » التى عبدت أحيانا كالآلهة الأم ، ومن ألقابها « بعثة » أى « سيدة » ــ وهنا تعد حامية لمكان أو مدينة معينة ، ولقب ملكة السماء ولقب « عنات » وهذه كانت تعد آلهة للحب والحرب ، وقد وحدها اليونان مع آلهتهم « افروديت » والرومان مع آلهتهم « فينوس »، وقد عبد المصريون آلهتهم « رشـــف » كما أنهم أخذوا عن المصريين عبادة الاله « بس » ــ وقــد وجدت آثار معابدهم فى أماكن مختلفة وهى لا تخرج عن مذبح صخرى ونصب مقدس قائم الى جــوار عمود أو شجرة مقدســـة وغرف تحت سطح الأرض ومصاطب يغسل عليهـــا المتعبدون أقدامهم قبل تأدية الطقوس وفى بعض الأحيان كان يوجـــد مكان مرتفع فى مؤخرة المعبد ــ أما قدس الأقداس يوضع فوقه رمـــزا أو تمثال الاله ، وكانوا يستخدمون تماثيل صغيرة كتمائم لها قـــدرة سحرية ، كما أنهم أحيانا كانوا يجعلون أماكن للعبادة فى الهواء الطلق على رؤوس التلال أو الأماكن المرتفعة وهــذه لا يوجد بها سوى مذبح وعمود أو حجر مقدس وكانت غالبا لعبادة الآلهة المحلية ــ واعتقدوا بالبعث اذ عثر عـــلى بعض أوانى الطعـــام والشراب وأدوات الزينـــة والأسلحة مع الموتى ، ويظهر انهم تأثروا فى ذلك بمـــا كان متبعا فى مصر بل وكانت بعض توابيتهم فى الهيئة الآدمية كالتوابيت المصرية ، وقـــد زينـ بنقوش وكتابات دينية ومنها نقوش تمثل الموكب الجنزى بما فيه من نائحات وحملة للقرابين ومنها نقوش تصب اللعنات على من يحاول الاعتداء على التوابيت أو ازعاج الميت ، وقـــد ظلوا يمارســـون عادة التضحية بالأطفال عند تأسيس المبانى الجديدة وهؤلاء كانوا يدفنون فى أوانى فخارية كانت توضع تحت أرضية المنزل .

الأراميـــون :

كان هؤلاء من الرحل الذين عاشوا فى شمال شبه جزيرة العرب ثم هاجروا الى ســـورية . ويستدل من نصوص بلاد النهرين على أن جماعات آرامية قد اجتاحت قسما كبيرا من هذه البلاد وشمال سوريا ووسطها خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد وقـــد سادت العناصر الأرامية فيهـــا باستثناء بعض الجيوب القليلة التى كان يسيطر عليهـــا

انحيثيون ولكن الضغط الأرامى أخــذ يزداد تدريجيــا فى وادى نهر العاصى وما يليه شمالا حتى ساد الأراميون هــذه المنطقة بعد أن امتصوا فيها العناصر الأخرى (الأمورية والحورية والحيثية) أو أجلوهم عنها الا أنهم لم يتمكنوا من التوسع غربا حيث حالت جبال لبنان دون توغلهم وظلت انجماعات الأمورية والحيثية فى ازدهار هناك : كما أن الجماعات الكنعانية الفينيقية على الســاحل لم تتعرض لتأثير يذكر • وقد تكونت للأراميين دويلات أهمها « أرام النهرين » على الفرات وروافده الخابور وهى انتى عرفها المصريون باسم « نهارينا » ، « قدان آرام » التى كان مركزها مدينة « حران » ، « صوبة » ، « دمشــق » •

وقد اشتد النزاع بين ممنكة صوبة ومملكة اسرائيل واستطاع الملك داود ملك اسرائيل أن ينتصر على مملكة صوبة فى عهد ملكها « حدد عزر » كما نجح أيضا فى احتلال دمشق لفترة قصيرة ، وفى عهد سليمان تطورت الأمــور فأصبح « رصين » أو « روزن » ملك دمشق تابعا للملكة صوبة ، وقد قام بمحاربة العبرانيين طوال عهد سليمان وانتقلت السيادة بعد ذلك من صوبة الى دمشــق • وكان انقســام مملكة العبرانيين الى مملكتى يهوذا واسرائيل بعد عهد سليمان فى صالح ملوك دمشق الذين أخــذوا يؤلبون كل من المملكتين ضــد الأخرى ، وتمكن « بنحدد الأول » ملك دمشق (٨٢٩ — ٨٤٣ ق•م) من أن يأخــذ من ملك يهوذا كنوزا ثمينة من المعبد ومن القصر الملكى فى أورشليم ثم هاجر مملكة اسرائيل واستولى على بعض أجزائها ، وقــد أصبحت اسرائيل منــذ أواخر عهد ملكها « عمرى » (حــوالى ٨٧٥ ق•م) تابعة اسميا الى مملكة دمشق ، ولمــا حاول « أخاب بن عمرى » عدم دفع الجزية وعدم الانضمام الى انحلف الذى تكون من الملوك السوريين بزعامة دمشق فاجأه « بنحدد » بالهجوم وهدد عاصمته الســامرة فأجبره على الطاعة • وحينما حارب شلما نصر الثالث (٨٥٣ ق • م) ملك آشــور ذلك الحلف لم ينتصر انتصارا حاسما فى معركة « كركر » التى حدثت بين الطرفين ولم يتمكن الأشوريون من اخضاع دمشق الا بعد ســنوات عــديدة ، ويعد « جزائيل » خليفة « بنحدد » أعظم المحاربين فى تاريخ الأراميين اذ أنه تمكن من صــد هجوم الأشــوريين مرتين على بلاده ، ثم حارب اسرائيل ووسع ممتلكاته

فى شرق الأردن وتوغل فى فتوحاته الى أن وصل الى سهل فلسطين الساحلى بغية التحكم فى طرق التجارة التى تصل الى مصر وبلاد العرب ، وقد خضعت له اسرائيل فى عهد ملكها « يهودا حاز » خليفة « ياهو » وحينما أراد الاستيلاء على أورشليم « عاصمة يهوه » قدم له « يهو آش » ملك يهوذا كنوز المعبد وكل الذهب الموجود فى خزائن القصر وبذلك حوله عنها وأنقذها •

وما لبث أن تبدل الحال بعد ذلك حيث تضعضعت قوة الأراميين بسبب تكرار هجمات الأشوريين عليهم بينما زادت قوة الاسرائيليين فى عهد ملكهم « يربعام الثانى » الذى تمكن من مد حدوده شمالا على حساب الأراميين وصار يهاجم مملكتى دمشق وحماه وبعد نحو خمسين عاما تعاون « رصين » ملك دمشق مع « فقع » ملك اسرائيل ضد « أحاز » ملك يهودا الذى استنجد بالأشوريين فتقدم ملكها تيجلات بيليسر الثالث واجتاح الأراضى التابعة لملكة دمشق ولما هرب ملكها وتحصن فى العاصمة حاصره ملك آشور وفتح المدينة ونفى أهلها وقتل ملكها ولم تقم لملكة دمشق الأرامية قائمة بعد ذلك •

ولابد من الاشارة هنا الى أن الأراميين كانوا يقتبسون من حضارات الشعوب المجاورة ففى شمال سوريا مثلا تأثروا بمظاهر الحضارة الحيثية فاتخذت عاصمتهم « شمأل » مظهر المدن الحيثية ومن أشهر ملوكها « بناموا الأول » الذى ترك تمثالا ضخما للاله « حدد » وقد ذكر على هذا التمثال أن همه الأكبر هو أن يوفر السعادة لشعبه وأن بلاده تزرع الشعير والقمح والكروم • ويذكر « بارر كاب » بن « بنامو الثانى » أن ولده زاد فى فخامة البلاط الملكى كما أنه هو نفسه عاش فى أبهة لا تقل عن أبهة ملك آشور الذى خضع له • وقد استمر عداء الأراميين للعبرانيين نحو قرنين من الزمان • ومن الدويلات الأرامية التى كانت تنازع العبرانيين مملكة صوبة التى كانت الى جنوب زحلة فى سهل البقاع ، وقد انتصر داود ملك العبرانيين على هذه المملكة كما احتل دمشق • ثم تناوبت دمشق وصوبة السيادة بعد ذلك ، فبعد أن كان ملك آشور تابعا لصوبة قام بمحاربة العبرانيين طوال عهد سليمان • وانتقلت السيادة بعد ذلك الى دمشق التى حالفها الحظ بانقسام مملكة

العبرانيين الى مملكتين (اسرائيل ويهوذا سنة ٩٢٢ ق • م) حيث أخذت تؤلب احدى هاتين المملكتين ضد الأخرى وتمكن ملك دمشق « بنحدد الأول » (٧٨٩ – ٨٤٤ ق • م) من أن يأخذ من ملك يهودا كنوزا ثمينة من المعبد ومن انقصر الملكى فى أورشليم ثم هاجم اسرائيل وأخضعها (اسميا على الأقل) لسلطانه • وحينما تحالفت المدن السورية ضد شلما نصر الثالث كان ملك دمشق يرأس الحلف الذى لم يتمكن الأشوريون من الانتصار عليه انتصارا حاسما ، وبعد نحو سبعين عاما أصبحت دمشق من الضعف بحيث هاجمها « يربعام الثانى » ملك اسرائيل وذلك لأن هجمات آشور ضعضعت قوتها • وفى عهد تيجلات بيليسر الثالث اجتاح الأشوريون معظم المدن السورية وحاصروا دمشق وأسقطوها فى سنة ٧٣٢ ق • م وقتل ملكها وبذلك انتهت السيادة الأرامية •

وكما اشتهر الفينيقيون بالتجارة البحرية اشتهر الأراميون بالتجارة البرية فكانوا يرسلون قوافلهم الى جميع الأقطار المجاورة واحتكروا تجارة سورية الداخلية وكانت دمشق محطة تجارة البادية كما كانت جبيل ميناء تجارة البحر ، وكان الأراميون يتاجرون فى الأراجون من فينيقيا والمطرزات والكتان والنحاس والأبنوس والعاج من أفريقيا ، ومهما كان الأمر فان توسعهم السياسى والعسكرى ، وكان من جهة هذا التوسع التجارى أن نشر الأراميون لغتهم فى مختلف البلدان وقد بلغ من انتشارها أن أصبحت لغة رسمية الى جانب كونها أصبحت اللغة العامة للتجارة والحضارة فاستعملت كلغة رسمية بين ممتلكات الأمبراطورية التى استخدموها ، وكانت الأرامية لغة المسيح وشعبة وكتبت بها بعض الصلوات المسيحية وقد تفرغت مع الزمن الى مجموعتين• شرقية فى وادى الفرات ومنها السريانية ، وغربية ومنها التورائية وبضعة لهجات أخرى مثل التدمرية والنبطية •

حضارة الأرامين :

يبدو تأثر الأرامين بحضارة الشعوب المجاورة واضحا فى شمال سوريا اذ تأثر الأراميون هناك بمظاهر الحضارة الحثية وكانت

عاصمتهم فى مظهرها لا تختلف كثيرا من المدن الحيثية ، وقد ذكر أحد ملوكها على تمثال اقامه للاله « حدد » بأنه كان يحرص على أن يوفر السعادة لشعبه وأن بلاده ازدهرت فيها زراعة الشعير والقمح والثوم والكروم ويفتخر ابن هذا الملك فى نص له بأن والده زاد فى فخامة البلاط الملكى كما أن هذا الأبن نفسه عاش فى آبهة لا تقل عن آبهة ملك آشور الذى خضع له •

أما عن ديانتهم فقد كان الاله « حدد » أهم معبوداتهم وهو اله الزوابع والرعد وكان محبوبا بصفة خاصة بين المزارعين لأنه كان يرسل المطر وقد امتزجت عبادته بعد ذلك بعبادة الشمس وكانت رفيقته الالهة « أتارجاتس » تعد الالهة الأم وكان يرمز لها بالهلال وقرص الشمس وانتشرت عبادتها فى فلسطين ثم انتقلت الى الرومان بعد ذلك • والى جانب هؤلاء كان هناك عدد من الآلهة الثانوية بعضها محلى والبعض الآخر انتقلت عبادته من الأقطار المجاورة مثل الاله « شمش » وهو من آشور والاله « رشف » وهو من فينيقيا وغيرهما •

الشعب العبرانى :

نزح العبرانيون من شبه جزيرة العرب الى سوريا عن طريق كنعان فى نفس الوقت الذى وصلها فيه الأراميون تقريبا ، فتسلسل العناصر السامية التى وصلت الى الأقليم السورى كان على النحو التالى : الأموريون تركزوا فى بادىء الأمر فى الشمال والكنعانيون فى الساحل ، والأراميون فى المنطقة الداخلية والعبرانيون فى الجنوب •

ومع أن الكتاب المقدس « العهد القديم » لا يسرد المعلومات على نسق واحد ، كما أن الزمن الذى كتبت فيه أسفاره الخمسة الأولى وطريقة تصنيعها كلها تدعوا الى كثير من الجدل وتجعل تاريخ العبرانيين عرضة للمناقشة الا أن ما ورد فيها يعد المصادر الأساسية لتاريخ الشعب العبرى • ومما جاء فيها نعرف أن هؤلاء العبرانيين أتموا هجرتهم الى فلسطين على ثلاثة مراحل ، أقدمها كانت الى الصحارى القريبة من شمال بلاد النهرين ومنها الى الخليل ويرجح أنها كانت فى نفس الوقت الذى

حدثت فيه تحركات الهكسوس فى شرق البحر المتوسط أى فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، والثانية الى فدان رام ، وتوافق هجرة الأراميين أى حوالى القرن الرابع عشر ق • م ، والثالثة كانت فى أواخر القرن الثالث عشر ق • م • وفيها خرجوا من مصر الى جنوب شرق فلسطين بعد جولة ليست بالقصيرة فى شبه جزيرة سيناء •

وحينما وصلت هجراتهم الأولى الى الأقليم السورى كان السواد الأعظم فيه من الأموريين والكنعانيين بالاضافة الى بعض العناصر غير السامية كالحوريين والحيثيين وغيرهم • وقد استطاع هؤلاء العبرانيون أن يختلطوا بهؤلاء جميعا وأن يتعلموا حياة الاستقرار بعد أن كانوا من المتجولين المغامرين ؛ واتخذوا اللغة الكعنانية بدلا من لغتهم الأصلية كما تأثروا بكثير من مظاهر الحضارة والثقافة الكنعانية ولذا يمكن اعتبارهم ورثة للكنعانيين أو أحلافا لهم • وتذكر الأساطير العبرانية أن جدهم الأكبر ابراهيم (أو قبيلتهم الأصلية) أتى من أور الكلدانيين عن طريق حران واستقر مؤقتا قرب حبرون (الخليل) وربما يتفق هذا الارتحال مع الهجرة الأولى ثم أقام حفيده يعقوب (ابن اسحق) عدة سنوات فى فدان أرام ، ويحتمل أن هذا هو ما يتفق مع هجراتهم الثانية ، وحينما وقع الاختيار على يعقوب ليكون صاحب الشأن بينهم غير اسمه الى اسرائيل كما غير أخوه عيسو اسمه هو الآخر الى أدوم وسمى ورثته بالأدوميين • ومن أبناء يعقوب كان يوسف الذى استقر هو واخوته بمصر وبعد أن عاش أحفادهم فيها عدة أجيال أخرجوا منها وكان يقودهم موسى وفى خلال الرحلة ظهر الرب لموسى وأعلن الشريعة ، وتذكر التوراة أيضا أن موسى مات ولم يدخل أرض الميعاد التى كانت على مرأى منه وقد ترك فتحها لخليفته « يشوع » وهذه هى هجرتهم الثالثة التى تعد بداية التاريخ الحقيقى للاسرائيليين •

ولا يعرف تاريخ الهجرة الأخيرة بالضبط رغم أن كلمة اسرائيل وردت على لوح حجرى من عهد مرنبتاح ابن رمسيس الثانى وقد ظل أفراد هذه الهجرة يتجولون طويلا فى سيناء حيث قاسوا كثيرا ، وتزوج موسى من ابنة كاهن مدين (فى جنوب سيناء) الذى كان يدين بوحدانية يعبد فيها يهوه وهو أحد آلهة العرب الشماليين • ثم اتخذت هذه

الجماعة الاسرائيلية مكانا لها فى جنوب شرق الأردن استعدادا لدخــول فلسطين وكان عددها يقدر بحــوالى ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ نفس ، ومرت فى طريقها بدويلات صغيرة فى جنوب وشرق وشمال شرقى البحر الميت • ولم تحاول مهاجمة هذه الدويلات ولكنها حاربت امارة سيحون الأمورية (فى شرق الأردن) وانتصرت عليها كما انتصرت على امارة « باشان » التى كان ملكها « عوج بن عنق » المشهور فى التوراة على أنه من العمالقة ، واستولوا على بعض المدن الكنعانية المحصنة فى فلسطين مثل لخيش ، عادى ، آريحا ، وأحرقوها وقتلوا أهلها حتى الأطفال ، ولكن بعض المدن الأخرى استعصت عليه مثل جزر آورشليم وبيت شان ، وهــذه الأخيرة لم تسقط فى أيديهم الا حوالى سنة ١٠٠٠ ق • م أو بعد ذلك بقليل •

وبعد أن استقروا فى الجهات التى وصلوا اليها اختلطوا بسكانها ومن بينهم أقرباؤهم الذين كانوا قد فضلوا البقاء فيها ولم يهاجروا الى مصر ، ثم تغلغلوا فى أماكن أخرى وبعدئذ قسموا الجهات التى سيطروا عليها بين احــدى عشرة قبيلة من القبائل الأثنى عشر التى تضمهم أمــا القبيلة الباقية وهى قبيلة « لاوى الكهنوتية » فقــد تفرغت للشــئون الدينية ووزعت على القبائل الأخرى ، وهذا ما يعرف بعصر القضاة •

ومهما يكن من الأمر فان كيانهم لا يبدو واضحا فى فلسطين الا بعد خروجهم من مصر ، ومن المرجح أن توغلهم سلمى حيث بدأوا جماعات بدوية يستوطنون فى مناطق ريفية ومدنها المحصنة وأخذوا يكيفون حياتهم مقتضايت ظروف بيئتهم الجــديدة ، وعند قدومهم كان سكان فلسطين عبارة عن جماعات كنعانية وجماعات غير سامية الى جانب بعض قدامى العبرانيين الذين لم يرحلوا الى مصر أو من الذين لم يشتركوا فى الخروج مع موسى وسرعان ما اندمج العبرانيون القادمون مع السكان الأصليين ، وكانت القبيلة أساس نظامهم الاجتماعى القــديم حيث تقص علينــا التوراة أن الأراضى المفتوحة كانت تقسم على ١١ من قبائلهم بينهــا وزعت القبيلة الباقية وهى قبيلة « لاوى الكهنوتية » على بقية القبــائل للخدمة الدينية ، وهذه القبائل كانت تنقسم الى عشــائر ولكنها كانت تتجمع حول هيكل مركزى فى سيلون « مكانها الآن خربة سيلون وكانت

فى منطقة قبيلة افرايم » أى كانت لديهم مركزية دينية تشبه مجلس الأمفكتيون اليونانى (مجلس يشرف على شئون العبادة ويرتبط بالمعابد وتمثل فيه أقوام من بلاد اليونان يتحدون فى اطار دينى سياسى ويفصل فى الخلافات التى تنشب بينهم) ، وكان مركز الكاهن الأكبر عظيما ولكنه لا يتمتع بسلطة سياسية بل يتصدر القوم أثناء الأزمات زعماء محليون هم القضاة وقد ظل هؤلاء يحكمون العبرانيين طوال القرنين التاليين لدخولهم فلسطين وكانوا أبطالا وحكاما قادرين قادوا قبائلهم فى حروبهم ضد أعدائهم واشتهر منهم كثيرون الا أن سلطتهم كانت محدودة وقاصرة على فترات معينة وتعتمد أساسا على رضى الله عنهم وتأييده لهم ولهذا يطلق على هذه الفترة من تاريخهم أحيانا اسم عهد « الرضى الربانى » ومن أشهر شخصياتها « دبوره » التى تنتسب اليه قبيلة « افرايم » فقد قادت بالاشتراك مع « باراق » الذى ينتسب الى قبيلة « نفتالى » ستة قبائل ضد الكنعانيين فازت عليهم فى مجدو ، اشتهر فى هذه الفترة كذلك « جدعون » الذى طهر المديانيين (وهؤلاء غزاة من البدو استخدموا الجمل لأول مرة) ، شمشون الذى رويت عن كفاحه ضد الفلسطيتيين قصص كثيرة .

وكان الفلسطينيون وهم من شعوب البحر الذين جاءوا من منطقة بحر ايجة فى أواخر القرن الثالث عشر ق . م . وسكنوا جنوب سورية وأصبحوا أقوى أعداء العبرانيين ومن اسمهم اشتق اسم فلسطين اذا كانوا يعيشون على الساحل الممتد من غزة الى قرب يافا وأهم مراكز استيطانهم غزه وعسقلان وأشدود وعقرون وجت وحاولوا الدخول الى مصر فى عهد رمسيس الثالث ولكنه هزمهم وردهم عنها ، وكان الحد الفاصل بينهم وبين الفينيقيين عند الكرمل ، وقد توسعوا الى داخلية البلاد فاستولوا على عدد من المدن الكنعانية وقد ثبتت أقدامهم وأقدام العبرانيين فى فلسطين بسهولة نظرا لأن الحملات المتتالية التى تعرضت لها البلاد السورية من قبل المصريين وغيرهم قد أدت الى ضعف سكان هذه المناطق وفقرهم كما أن ضعف مصر وعجزها عن معاودة السيطرة على هذه الأجزاء مما أدى الى نجاح الفلسطينيين والعبرانيين فى الاحتفاظ بمكانتهم فيها وكان الفلسطينيون يعرفون صناعة الحديد ومهروا

فى استخدامه فكان العبرانيون يلجأون اليهم فى صنع أدواتهم الحديدية من زراعية وغيرها • كذلك عرف الكنعانيون منهم استخدام العربات الحديدية فتفوقوا على الغزاة العبرانيين • وربما كان استعمال الفلسطينيين للأسلحة الحديدية هو سبب انتصارهم فى أول الأمر على العبرانيين اذ كونوا من مدنهم الخمسة الرئيسية اتحاد بزعامة أشدود وحاربوا العبرانيين وانتصروا عليهم حوالى سنة ١٠٠٠ ق • م واستولوا منهم على تابوت العهد ونقلوه الى أشدود •

وقد أراد العبرانيون محاكاة جيرانهم الذين ينضوون تحت لواء ممالك خاصة بهم ، وسنحت الفرصة عند اشتداد الحروب بينهم وبين الفلسطينيين حيث طلبوا الى زعيمهم الدينى صموئيل أن يعين عليهم ملكا فاختار لهم شاؤول وهكذا أنشأوا ملكية لهم يعتبر تأسيسها بداية تاريخ الأمة العبرية حيث أخذت صفات قومية واضحة تتكون لديهم احتفظوا بها وبفرديتهم وقد ساعدتهم ديانتهم على الاتحاد والتعاون وزادت من تطرفهم فى شعورهم القومى ومع هذا فان الملكية لم تستقر الا على أسس مقتبسة من الخارج فضلا عن كونهم ظلوا محتفظين بالنظام القبلى فيما يختص بالشئون الادارية كما أن الملك لم يحكم الا حسب أوامر « يهوه » الرب كما يعلنها الصالحين منهم •

وظل ملكهم الأول « شاول » يعيش فى خيمة فى بلده جبعة « تل الغول على بعد أربعة أميال شمالى آورشليم » كشيخ بدوى لا يمتد سلطانه الى أكثر من منطقة قبيلته « بنيامين » فى أول الأمر — ومع أنه كان ضعيفا فاشلا مخيبا للآمال الا أن انتخابه كان يعنى الرغبة فى التحرر من سيادة الفلسطينيين ، الذين ازداد نفوذهم وتسلطوا على مدن داخلية بعيدة مثل « بيت شان » ولما اندلعت الحرب بين الفريقين انتصر الفلسطينيون بعد قتال عنيف وقتل ثلاثة من أولاد شاؤول وجرح هو جرحا خطيرا فانتحر •

وبموت « شاؤول » تولى الملك حامل سلاحه داود واعترف به ملكا فى « حبرون » بينما تمكن رئيس جيش شاؤول من أن يجعل ابنا لشاؤول ملكا فى شرق الأردن وسرعان ما دب النزاع بين الرجلين وانتهى بمقتلهما

فأصبح داود الملك الوحيد واعترف بـه بقية العبرانيين وكان هـذا شخصية فذه بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين ولكنه لم يلبث أن حقق الاستقلال التام لقومه ووصل بحدود مملكته الى أقصى اتسـاع وصلته بحيث أخضع أدوم ومؤداب وعمون والجهات الآرامية فى الأقليم الداخلى من سوريا الى حـدود مملكة حماه وهـدد دمشق فكانت مملكته أقـوى دولة ظهرت فى فلسطين • وبعد أن وطد ملكه قام باحصاء رسمى للنفوس واستولى على حصن آورشليم الكنعانى واختارها عاصمة له وفيها أقام قصره الملكى الذى استعان فى بنائه بمعماريين ونجاريين من صور أرسلهم اليه ملكها وهـو صديقه الفينيقى الملك « حيرام » ، كما شـيد معبدا لعبادة « يهوه » وجعلها الديانة الرسمية فى دولة العبرانيين الموحـدة ، وفى عهده أخذ الأدب العبرى فى الظهور وبدأ تدوين الحوادث الهـامة وحفظ الوثائق الرسمية وارتقى الشعر وكان داود نفسه شاعرا وموهوبا فى الموسيقى واليه تنسب المزامير التى تهدف الى تمجيد القيم الروحية •

وعلى الرغم مما قام به داود من جهود فى سبيل اعلان شأن قومه فان حياته حفلت بالمـآسى وربما كانت ميوله الشخصية سببا فيما تعرض لـه ملكه فيما بعد فقـد أظهرته نزواته الشخصية تجمع بين كثير من المتناقضات فهو يبدو قاسيا شديد القوة أحيانا رحيما عطوفا فى أحيـان أخرى ، وكان زواجه من عدد من النسـاء اللاتى أنجب منهن عددا من الأبناء سببا فى حدوث بعض المؤمرات والدسائس من أجل الاستيلاء على العرش حتى أن أحـد أبنائه « أبشالوم » ثار عليه ، وبعد أن انتهى الأمر بقتل « أبشالوم » ورخمه بكاه داود وتمنى لو أنه مات بدلا منه ، كما أن شقيق أبشالوم « أدونيا » دبر مؤامرة لانتزاع التاج من والده ولكن بعض رجال داود تمكنوا من انقاذ الملك وواصلوا جهودهم حتى انتقل العرش الى ولد آخر له هـو سليمان •

وبدأ سليمان عهده بالتخلص من منافسيه ، وقـد أفاد سليمان من جهود والده ، وزاد عليها أما قام به من مشاريع تجارية وصناعية وعمرانية ولكنه تغالى فى آبهته وميله الى الترف ، وقـد بنى قصره معماريون فينيقيون فى ثلاث عشرة سنة وبلغ من وفر أعمدة خشب الأرز فى جناحه

الملكى أن أطلق عليه اسم « بيت غابة لبنان » ، وكان الهيكل الذى بنـاه فى سبع سنوات بمثابة معبد ملكى ملحق بالقصر ولكنه أصبح فيما بعد مركزا عامة لعبادة العبرانيين وان كانت زخارفه بل والنقوش التى وجدت به كانت مستوحاه مما كان متبعا عند الكنعانيين ، هـذا وقد أسرف فى تسخير أعداد ضخمة من رعيته فى مبنانيه كما أسرف فى فرض الضرائب حتى يواجه نفقاته الهائلة فقد كشف مثو عن آثار اسطبلاته وهى تبين أن عرباته كانت تصطف أزواجا وتدل مرابطها أنها كانت تستوعب ٤٥٠ حصانا حصل على بعضها من مصر والبعض الآخر من قليقية ، وكان لاسطوله التجارى فى البحر الأحمر قاعدة عند رأس خليج العقبة وتنسب القصص والأساطير الى سليمان قوة وحكمة خارقتين حتى بلغت شهرته الآفاق وضم حريمه ٢٠٠ زوجة ، ٣٠٠ من السرارى كما تروى الأساطير قصة ذهاب ملكه سبأ اليه ومما يذكر فى هـذا الصدد أنها أنجبت منه ولدا تربع على عرش الحبشـة ولقب باسم « أسـد يهوذا » وربما كان هذا هو سبب احتفاظ ملوك الحبشة بهذا اللقب كلقب رسمى حتى الآن ، ومع ذلك فان الوثائق التاريخية تدل على أن سليمان ورث مملكة أكبر بكثير من تلك التى تركها لخلفه حيث أخـذ « حداد » الأمير الأدومى الذى كان قد هرب من وجه « داود » أخـذ يثير المتاعب لسليمان حتى انسلخت أدوم عن مملكته كما أن « رصين » (روزن) الأرامى استطاع أن يحرر مملكة دمشق بعد أن كانت خاضعة للعبرانيين ، غير أن بوسينيس الثانى آخـر ملوك الأسرة الحادية والعشرين اسـتولى على حصن « جزر » الكنعانى وأعطاه لسليمان كصداق لابنته التى تروجها سليمان .

ويبدو أن اقبال سليمان على ملاذه ومحاولته مرضاة زوجاته جعلته يبنى هياكل ودور عبادة لالهتين ولم يقتصر على الهيكل الذى بناه للرب والى جانب هـذا كانت مغالاته فى فرض الرسوم والسخرة وبذخـه واسرافه سببا فى السخط عليه وان لم يظهر أثر ذلك فى عهده مباشرة اذا انقسمت المملكة بعده واو أن هـذا الانقسام كان الخاتمة الحتمية لظروف هذه المملكة اذ أنها تضم قسمين متباينين : القسم الشمالى ويسكنه شعبه [illegible] يعيش فى أرض خصبة تجود بمحاصيل مختلفة ، القسم الجنوبى ويسكنه شعب رعـوى يعيش بقطعانه فى المرتفعات الصالحة لقطعانه ،

كما أن القبائل الشمالية كانت أكثر تأثرا بحضـــارة الكنعانيين وتزاول طقوسها الدينية على نمط الطقوس الكنعانية بينما تزاول القبائل الجنوبية طقوسا أكثر بساطة • وحينما مات سليمان اجتمع ممثلوا الأثنتى عشرة قبيلة لينصبوا ولده « رحبعام » ملكا وكان فى السادسة عشرة من عمره متهورا قاسيا فلما سألوه أن يخفف عنهم عبأ الضرائب التى أثقل بهـــا والده كاهلهم أجابهم بقســـوة وغلظة رغم أن المسنين من مستشاريه نصحوه بالاستجابة الى الشعب ولكنه لم يستمع الى نصيحة الشباب من أقرانه ، وعلى هـــذا رفضت عشرة قبـــائل الاعتراف بـــه ملكا وإنتخبت « يربعام » ملكا عليها مكونة مملكة اسرائيل بينمـــا تبعت « رحبعام » القبيلتان الباقيتان فى مملكة عرفت باسم يهودا وهكذا انقسم العبرانيون الى مملكتين حتى انتهى كيانهم القوى •

مملكة اسرائيل :

بدأ الحكم فيها « يربعام » وقد جعل من « شكيم » عاصمة له ثم شـــيد « فنوئيل » فى شرق الأردن وجعلها مركزا ثانيا له • وقد حـــكم نحو ٢٢ عاما ، وفى عهده غزا شاشانق المملكة الجنوبيـــة (يهودا) وفى نهاية عهده تعرضت البلاد لفترة من القلق وعدم الاستقرار ولم يستمر ولده « ناداب » على العرش الا نحو عامين حيث دبرت مؤامرة ضده أثناء غيابه عند حصار « جيثون » وتمكن مغتصب العرش من الحكم ٢٤ عاما ، وقد حاول الضغط على مملكة يهودا ولكن هـــذه استنجدت بالملك الآرامى « بنحدد » فى دمشق فا أرغم هـــذا مملكة اسرائيل على التخلى عن ضغطها على يهودا ولم يستمر ابن هـــذا المغتصب على العرش سوى عامين قتله بعدها مغتصب جديد كما قتل جميع الذكور من أهل بيته ، ومع ذلك لم يستمر هـــذا المغتصب على العرش أكثر من أسبوع حيث نادى الجنود بقائدهم « عمرى » ملكا وتقدم لحصـــار المغتصب فى مقره فما كان من هـــذا الأخير الا أن أشعل النار بالقصر ومات بداخله •

ورغم أن الشعب انقسم على نفسه بسبب وجود مدعى للعرش الا أن مؤيدى « عمرى » مالبثوا أن أصبحوا الفريق الأقوى ، ولم يمض وقت طويل حتى مات هـــذا المدعى فانفرد « عمرى » بالعرش وأسس

عاصمة جديدة هى « السـامرة » ومع أنه كان يسير فى سياسته العامة تحت ضغط الأراميين فى دمشق لرغبتهم فى تأمين اتصالهم غربا بالبحر الا أنه كان بعيد النظر محنكا حتى أطلق عليه لقب « داود الشمالى » ، وقد أحسن استغلال الظروف فوطد علاقاته بفينيقيا لتكون الى جانبه ضد ضغط دمشق وزوج ابنه من ابنة ملك صيدا (ايزابيل) وتمكن من اخضاع مؤاب لاسرائيل فظلت تدفع لها الجزية فى عهده وعهد خلفه أى نحوا من ٤٠ سنة وقد اقترن اسم اسرائيل بشهرته حتى أنها عرفت فى النصوص الأشورية باسم « دولة عمرى » ولم يحدث بينه وبين مملكة يهـودا (الجنوبية) ما يعكر صفو السـلام بينهما ، وحينما توفى خلفه على العرش « أخاب » •

ويعد « أخاب » أشهر من تحدثت عنه التوراة بعد سليمان ، فقد قام بعمل كثير من المنشآت فى السـامرة ، ومع أن « بنحدد » ملك دمشـق استطاع حصاره فى السـامرة الا أنه تمكن من التغلب على الأراميين بل وانتصر عليهم مما دعا الى عقد معاهدة بين الأراميين وبين الأسرائيليين بمقتضاها أصبح لأخاب ملك اسرائيل الحق فى استراجع المدن التى كانت مملكة دمشق قد استولت عليها من اسرائيل فى عهد سلفه كما أصبح لـه الحق فى أن يجعل له سوقا فى دمشق مثلما كان لملك دمشق سـوقا فى السـامرة أثناء حكم سلفه ، ومن المرجح أنه انضم الى حلف من الولايات السورية ضد الملك الأشـورى « شلما نصر الثالث » وقد انتصر الملك الأشـورى على هذا الحلف واستولى على كثير من الغنائم الا أن هـذا الانتصار لم يكن حاسما • ويبدو أن العداء بين الأراميين واسرائيل لم ينته بانتصار « أخاب » السـالف على ملك دمشق اذ أن « أخاب » قام بحملة لاسترجاع « راموت جلعاد » التى استولى عليها ملك دمشق وكان يعاونه فى هذه الحملة صهره ملك « يهوه » وقد قتل « أخاب » فى هـذه المعركة بسهم طائش ودمر الأراميون جيشـه •

وقـد أدى زواج أخاب من ابنة ملك صيدا الى تشجيع عبـادة « بعل » وغيره من آلهة صيدا مما آثار نفوس الاسرائيليين اذ خشى هؤلاء من تهديد هذه الآلهة الأجنبية لسلطان وسيطرة الاله الوطنى

« يهوه » ، وقد تبع « أخاب » ولده « أخزيا » الـــذى لم يستمر على العرش سوى عامين ثم مات وتبعه أخاه « يهورام » .

وتبين شواهد الأحوال على أن المؤابيين استردوا بعض ممتلكاتهم التى كان « عمرى » قد استولى عليها ولمـا أراد « يهورام » اعـادة سيطرة اسرائيل عليها واستعان فى ذلك بملك يهودا وملك أدوم وقد نجح المؤابيين فى صـــد الغزاة وبعد ذلك مات ملك يهودا وتبعه ولده الذى كان يسمى يهورام أيضا (أى أن كلا من اسرائيل ويهودا كان يحكمها ملكين يحملان نفس الاسم يهورام) ، وقد كانت أدوم خاضعة لسلطان يهودا ولكن هذه الأخيرة فقدت سلطانها عليها حتى أصبحت فى حالة يرثى لها ولم تنج من هـــذا انحصـــار الا بتراجع الأراميين عنها لوصول أنبـــاء عن هجوم الأشوريين على مملكتهم . والظاهر أن يهورام خرج فى قتاله مع الأراميين ، وتمكن قائد جيشه « ياهـــو » من قتله كما أمر بمطاردة ملك يهودا الذى كان يعود الجريح وقد مات ملك يهودا هـــو الآخر بعد أن وصل الى مجـــدو .

وقد أمر « ياهـــو » بقتل أبناء « أخاب » ومؤيديه كما قتل أخوه ملك يهودا وبدأ حكمه بسلسلة من المذابح ظلت عالقة فى الأذهان فترة طويلة من الزمان ، ومع أنه بدأ حكمه تحت سيادة دمشق كما أن خليفته « ياهو أحاز » يعترف بهذه السيادة الا أن أسرته ظلت تحكم اسرائيل نحو قرن من الزمان ، أى ما يعادل نصف المدة التى ظلت فيهـــا هـــذه المملكة قائمـــة .

وفى السنة الأولى من عهد « ياهـــو » هاجم شلما نصر الثالث ملك آشـــور بعض الدويلات الســـورية ووصل الى البحر المتوســـط حيث فرض الجزية على صـــور وصيدا واسرائيل ، وربما كان « ياهـــو » وقد ارتضى دفع الجزية وانسحب من الحلف الذى كونه ملك دمشق مـــع الســـوريين للوقوف فى وجه آشـــور اذ أن « جزائيل » ملك دمشـــق [illegible] الذى [illegible] بنحدد الثانى واعتلى عرش دمشق مكانه [illegible] هجوما عنيفا على اسرائيل كانت من نتيجته أن فقدت اسرائيل ثلث أمر[illegible] [illegible]

شرق الأردن ، وقد استمر ضغط الأراميين على اسرائيل فى عهد « يهو أجاز » خليفة « ياهو » ومع أن اسرائيل تمكنت من انخلاص فترة الا أن « حزائيل » ملك دمشق أعاد اخضاع اسرائيل وأذاقها من الذل والمهانة ما لم تتعرض لمثله من قبل حتى أنه لم يبق لملكها « يهو أجاز » سوى خمسين فارسا وعشر مركبات وعشرة آلاف رجل ، وحينما تقدم ملك دمشق جنوبا فى فلسطين لم ينقذ ملك يهودا عاصمته أورشليم من غزو الأراميين الا ما قدمه من كنز وذهب المعبد والقصر الملكى وهكذا كانت مملكة دمشق تسيطر على كل من مملكتى العبرانيين (اسرائيل ويهودا) ولم تتمكن اسرائيل من التخلص من سيادة دمشق الا فى عهد « يهواش » خليفة « يهو أجاز » اذ أن دمشق تعرضت لضغط آشور حينئذ تمكن هذا الملك من الانتصار على دمشق ثلاث مرات خلال مدة حكمه التى بلغت نحوا من ستة عشر عاما واستطاع أن يستعيد المدن التى كانت قد فقدتها اسرائيل .

وتولى « يربعام الثانى » بعد « يهواش » ، وظل يحكم نحوا من أربعين عاما وهو يعد من أشهر ملوك اسرائيل استقرت فيه أمور المملكة وأحرزت بعض التقدم ووسعت حدودها وربما تمكنت من ذلك بسبب اخضاع آشور لمملكة دمشق من جهة ثم انشغال آشور بمشاكلها الداخلية من جهة أخرى ، ولم يبق على العرش خلفه « زكريا » الا نحو ستة أشهر قتله بعدها مغتصب للعرش يدعى « شلوم » وبذلك انتهى حكم أسرة « ياهو » .

وفى أعقاب عهد أسرة « ياهو » توالت الأحداث سريعا على اسرائيل فقد تعرضت لفتن داخلية وأخطار خارجية فى نفس الوقت فلم يستمر « شلوم » على العرش سوى فترة وجيزة قتله بعدها « منحيم » وتولى العرش نحوا من عشرة سنين ، ثم هاجمته آشور فصرفها عنه فى نظير كمية من الفضة . وعند موته خلفه ابنه « فقحيا » الذى حكم مدة عامين ثم قتله « فقح بن رمليا » وتولى العرش نحوا من عشرين سنة ؛ وفى عهده غزت آشور تيجلات بيليسر الثالث مملكة اسرائيل واستولى على عدد من المدن وبعد فترة قتله « هوشع » الذى تقرب للآشوريين ودفع

لهم الجزية بينما قضى الأشوريون على مملكة دمشق وسبى أهلها غزانت مملكة الآراميين فيها وظل « هوشع » يحكم خمسة أعــوام سجل على أثرها وحوصرت الســامرة ثلاثة أعــوام لاشتراكه فى التمرد على آشور وكان ذلك فى عهد ملكها « شلما نصر الخامس » ، وقد سقطت الســامرة فى عهد خلفه « سرجون الثانى » الــذى سبى ٢٧٢٩٠ من أهل اسرائيل ونفاهم منهــا وأحل محلهم سكانا من أقطار أخرى تابعة للأشــوريين (من بابل وعيــلام وســورية وبــلاد العرب) واختلط هؤلاء ببقية الاسرائيليين وعرفوا باسم السامريين وقــد تأثروا فى عبادتهم بعبادة الاسرائيليين كما تأثر الاسرائيليون بمعبوداتهم ولذا نشب الخلاف بين السامريين وبين أهل يهودا كما نشب الخلاف بينهم وبين اليهود الــذين عادوا من السبى فى عهد الفرس •

مملكــة يهــودا :

اعتلى العرش فيها عدد من الملوك مســاوى لعــدد ملوك اسرائيل (١٩ ملكا) الا أن هــذه المملكة دامت أطول من فترة بقاء اسرائيل بنحو قرن وثلث من الزمان ، وقــد أشرنا الى أن « رحبعام » ظل ملكا على المملكة الجنوبية (يهــودا) حينما انقسمت مملكة العبرانيين بينما أصبح « يربعام » ملكا على المملكة الشمالية (اسرائيل) ، وقد اشتعلت الحروب بينهما طوال عهد « رحبعام » الذى لا نعرف حكمه (الذى استمر سبعة عشر عاما) ســوى ما اتصف به من قسوة ورعونه ، وفى عهده تعرضت يهودا لغزو فرعــونى على يد فرعــونها شاشــانق الذى كان قد زوج ابنته من « يربعام » ملك اسرائيل ولم يتمكن « رحبعام » من صــد هذا الغزو فاستطاع شاشانق أن يخرب المــدن وأن ينهب أورشليم ، كذلك ظلت الحروب قائمة بين « يربعام » وبين خليفة « رحبعام » (وهو إبيام) خلال حكم هــذا الأخير الذى استمر ثلاثة أعوام تقريبا • وحينما مات تبعه أخــوه « أســا » الذى استمر فى التحكم أكثر من أربعين عاما قــام خلالها باصلاحات كثيرة ، وقد أراد أحــد ملوك اسرائيل « بعشــا » فى عهده الأعتداء على يهودا فأرسل « آســا » كثيرا من الهدايا والمــال الى « بنحــدد » ملك دمشق الذى استجاب لــه فتخلى ملك اسرائيل عن مشروعاته تجــاه يهــودا •

وفى عهد « يهو شافاط » خليفة « آســا » حدث تحالف بين اسرائيل (التى كان يحكمها آخاب) وبين يهودا وقــد زوجه « آخاب » من ابنته ، وقد اشترط الملكان فى الهجوم على احدى المناطق السورية كما اشترك « يهو شافاط » و « يهو رام » ابن « آخاب » مع ملك أدوم ضد المؤابيين فى حملة كللت بالنجاح •

وقد تبع « يهوشافاط » ولده « يهورام » (وهو معاصر لملك آخر يدعى يهورام أيضا فى اسرائيل) ، وفى عهده حدثت ثورة من المؤابيين ولمــا أراد اخمادها لم ينجح هو وقواده خلالها الا بعد أن شقوا طريقهم ليلا فى صفوف الثائرين وبعد أن مات تبعه فى الحكم ولده « أخزيا » الذى صاحب خاله « يهورام » ملك اسرائيل فى احدى الحملات ولمــا خرج هــذا الأخير قام بالثورة ضده « ياهو » وقتله وكان « أخزيا » يعوده فأمر « ياهو » بمطاردته حتى وصل الى مجدو ومات هناك بعد أن حكم نحــوا من عــام واحد فقط •

واعتلى العرش بعد وفاته أمه ابنه « أخاب » « وأعلنت انقتل فى كل من اعتقدت أنه صاحب حق فى العرش من الرجال ولم ينج منها سوى حفيدها « يؤاش » الذى كان عمره سنة واحدة حيث أخفته عنها عمته وزوجها الذى كان كاهنا ، وحينما بلغ الصغير الســابعة من عمره دبر جلوسه على العرش وقتل جدته • وقد ظل على العرش أربعين سنة أصلح المعبد خلالها ولكنه اضطر الى تسليم كنوزه الى « جزائيل » ملك دمشق حينما تمكن هــذا الأخير من فرض سلطانه على كل من اسرائيل ويهودا كما أنه أغضب الكهنة بعد ذلك حيث تدخل القصر فى ضرائب المعبد وشجع عبادة ابعل فدبرت مؤامرة ذبحه فيها عبدان من عبيده وبعد وفاته خلفه ابنه « أمصيا » الذى حكم أكثر من خمسة عشر عاما ، وقد بدأ حكمــه بمعاقبة والده ثم حارب الأدوميين وانتصر عليهم وأغراه ذلك بتحــدى اسرائيل وقد انتصرت اسرائيل على يهــودا ثم حدثت ثورة ضــده فى أورشليم فهرب منها ولكن أرسلت وراءه من قتله فى ملجئه (لخيش) •

وقد اختلف المؤرخون فى مدة الحكم التى حكمها « عزريا » فالبعض يذكر أنها ٤٦ عاما والبعض يذكر أنها ٥٦ عاما ، ومهما يكن من أمر فانه اعتلى العرش وهو فى السادسة عشرة من عمره وفى عهده تحسنت العلاقات بين يهودا واسرائيل وراجت فيها التجارة وبدأ الرخاء ينتشر فى ربوعهما وقد نهض بالجيش واستعاد بعض المواقع التى كان الأداميون قد استولوا عليها وحصنها •

ومن الملاحظ أنه حينما توقف نشاط كل من أشور ومصر أفادت من ذلك كل من اسرائيل ويهودا حيث استقرت الأمور فيهما وعمدت يهودا الى تنظيم جيشها واصلاح حصونها ووسعت حدودها ونظمت شئونها الداخلية الا أنها لم تلبث أن أصبحت عرضة للهجمات المباشرة من أشور بعد أن قضى على مملكة اسرائيل وزالت من الوجود •

وقد تبعه فى الحكم ولده « يوثام » لمدة ستة عشر عاما ومن بعده ولده « أحاز » لمدة ستة عشر عاما أيضا ، ومع أن الأول صادف بعض النجاح فى حكمه الا أن الأخير تعرض للكثير من المتاعب من جانب الأدوميين والفلسطينيين ثم الأشوريين الذين شددوا الضغط عليه فى عهد ملكهم تيجلات بيليسر بدلا من أن يشدوا أزره رغم طلبه مساعدتهم له •

وقد اهتم « حزقيا » بالشئون الدينية وقام ببعض الاصلاحات فى هذا السبيل وفى عهده تقدم « سنا حريب » ملك أشور نحو أورشليم وحاصرها ولكن حدث وباء فى صفوف جيشه فرجع الى بلاده دون أن يتمكن من فتحها ، وبعد أن حكم نحو ٢٩ عاما تولى بعده ابنه « منسى » الذى كان فى الثانية عشرة من عمره وملك خمسين سنة ، وفى عهده تمكن الأشوريون من اخضاع يهودا واقتادوه أسيرا الى بابل ولكنه أعيد الى أورشليم وظل يحكمهم بها الى أن مات • وقد تقلصت مملكة يهودا وظلت تدفع الجزية بانتظام لأشور التى استمرت فى توسعها حتى أخضعت مصر لسلطانها فى عهد « أسر حدون » و « آشور بانيبال » الذى يعد عهده خاتمة عهود مجد أشور اذ سرعان ما دب الضعف فى الامبراطورية بعد وفاته وظهرت مملكة جديدة فى بابل قدر لها أن تكون

صاحبة السيادة فى الشرق الأدنى بعد القضاء على أشـور وقد عرفت هذه المملكة باسم المملكة الكلدانية أو البابلية الجديدة ٠. وبعد مـوت « منسى » تولى الملك ولده من بعده ، ولكن هـذا الأخير لم يحكم سوى عامين قتل بعدهما فى فتنة أثارها عبيده فتونى من بعده ولده « يوشع » وكان صالحا حكم أكثر من ثلاثين سنة ، وفى نهـاية عهده كانت الدولة الكلدانية هى صاحبة السلطان فى المنطقة بعد انهيار أشـور فلما تقدم « نكاو » ملك مصر فى الأقليم السـورى تصدى له « يوشع » متمسـكا فى الولاء لبابل على الاستسلام لملك مصر ، ولكنـه أصيب بجرح قاتل فى مجدو نقل على أثره الى أورشليم حيث مات ودفن فيها ، وخلفه على العرش ولده « يهو أحاز » لمدة ثلاثة أشـهر عزل بعدهـا وتولى أخاه « يواقيم » الذى أظهر خضوعه لبابل فترة ثم أبدى تمرده بعد ذلك فتوجه اليه « نبو خـذ نصر » ملك بابل وأسره واقتاده الى بابل وعين ولده الذى كان فى نحـو الثامنة من عمره فى مكانه ولكنه استبدل بعد نحو ثلاثة أشهر حيث أجلس عمه « صدقيا » على العرش ، وقد أقسم هذا يمين الولاء لبابل فى أول الأمر ثم قـام بالثورة ضدهـا ، وبالرغم من انتشـار الثورات ضد بابل فى جهات كثيرة فان ثورة « صدقيا » باءت بالفشل ٠ وبعد فترة تجدد ثورة « يهوذا » واستنجد « صدقيا » بملك مصر حينئذ « ابرس » الا أن البابليين نجحوا فى الاستيلاء على أورشليم عنوة بعد حصارها نحـو عام ونصف ، وهرب « صدقيا » ولكنه أدرك وجىء به « نبو خـذ نصر » حيث قتل أبناؤه أمامه وسلمت عيناه ٠ وقد غنم البابليون كنوز المدينة وكل ثمين فيها ثم سبوا أهلها ولم يتركوا منهم الا الطبقات الدنيا ثم أقاموا واليا من قبلهم ولكنه اغتيل هو ومن معه من يهود وبابليين على أيدى أحـد أفراد البيت المـالك ومعاونيه وقد خشى كثير من اليهود من نتائج هذا العمل ففروا الى مصر ٠

وبعد أن قضى الفرس على الدولة الكلدانية دخل كورش ملك الفرس مدينة بابل فوجد بها جالية يهودية ترجع فى أصلها الى سبى « نبو خـذ نصر » وقد سارع هذا الملك باصدار مرسـوم يبيح لمن يرغب فى هـذه الحالة من العودة الى أرض آبائه ويحملنا هـذا التصرف على الظن بأن من المحتمل أن هـذه الجالية قد ساعدت الملك على احتلاله المدينة فكافأها

على ذلك ، ومن الممكن أيضا أنه أراد أن يعيد طائفة اليهود الى فلسطين حتى تكون له عونا هناك وتكون قوة مضـادة للموالين لمصر ، وقد فضل الأغنياء عدم العودة كما أنهم ثم يندمجوا مع السكان الأصليين • أما الذين عادوا من السبى فقد ظهر منهم غـلاه فى المحافظة على نقاوتهم العنصرية كما تغالوا فى الرغبة فى تخليص ديانتهم من الشوائب والمحافظة على نقـاء العقيدة •

حضـارة العبرانيين :

يكاد يكون من المسلم به أن العبرانيين حينما وصلوا الى فلسطين واستقروا بها تركوا لغتهم السامية القديمة واتخذوا لغة الشعب الذى عاشوا بين ظهرانية فقد استعملوا لغة وأبجدية الكنعانيين ونظرا لأن لغتهم كانت لغة كلام قبل أن يصبح لهم أدب معروف فأنهم حصلوا على فن الكتابة من جيرانهم •

كذلك يلاحظ أنهم كانوا أصلا من البدو الرحل وما أن استقر بهم المقام حتى انتقلوا من الرعى الى الزراعة فى الأراضى الخصبية وخاصة فى الشمال وأصبحت الزراعة مورد معيشتهم الرئيسى بينما ظل سكان المناطق المرتفعة يعتمدون على الرعى كمورد أساسى لهم وقد ارتبطت حياتهم الزراعية بكثير من الأفكار والعقائد التى لم يكن لهم بها عهـد ومارسوا الأعمال والطقوس التى اعتبرت ضرورية للخصب وضمـان محصول جيد فكانوا يضحون بأحـد الحيوانات ويقدمون قرابين للمعبد من المحاصيل والماشية كما أن ملكهم يقوم بالرقص أمام تابوت العهد • ويبدو أنهم اعترفوا بالآلهة المحلية الى جانب معبودهم « يهوه » كآلهة تتعلق بالخصب والنماء ولذا كانت بعض العبادات والطقوس الكنعانية القديمة مازالت قائمة وانتشرت بينهم بل وأصبح الاله الكنعانى « بعل » فى بعض الفترات منافسا قويا للمعبود « يهوه » وكانت فكرتهم عن الحياة الأخرى شبيهة بالفكرة لدى الكنعانيين ومعظم الأمم القديمة فى المنطقة اذ كانوا يدفنون مع موتاهم بعض الأدوات التى كانوا يستخدمونها فى حياتهم اليومية •

ولم يقتصر تأثر العبرانيين بالكنعانيين على المظاهر الدينية فحسب بل نجد أن كثيرا من مظاهر الحضارة الكنعانية قد انتقلت الى العبرانيين اذ أن هؤلاء كانوا يرجعون الى أصل بدوى لم يعرفوا الاستقرار الا بعد أن اختلطوا بالشعوب الأخرى ففى العمارة نجد أن أقدم أثر دينى لهم وهو هيكل سليمان لم يشيده معماريون عبرانيون بل سوريون كما خطط على نمط معبد كنعانى وزخرف بزخارف كنعانية كذلك كان القصر الملكى فى أورشليم من عمل الصناع الفينيقيين وكانت الزخارف التى تمثل رموزا للحماية مأخوذة فكرتها مما كان متبعا لدى الأشوريين والسوريين القدماء اذ أنها كانت تمثل بشكل حيوانات لها رؤوس بشرية تحرس شجرة الحياة .

وقد تعددت لديهم آلات الموسيقى التى استخدمت فى الطقوس الدينية وفى حياتهم العادية ومعظمها من الآلات التى كانت مستعملة فى سوريا قبل وصولهم اليها وكانت أغانيهم ذات طابع شعرى وقد أدمجت بعض أغانيهم الدينية فى عدد من المزامير ومما يؤثر أن الشعر العبرى يتميز بالتوازى والمطابقة وكان ذلك معروفا عند الكنعانيين أيضا .

وقد برع العبرانيين بما عرف عنهم من حرص فى فن قطع الأحجار الكريمة واتبعوا فى ثيابهم وحليهم وخزفهم الأزياء والأساليب الكنعانية ، وارتقت الزراعة والصناعات المتعلقة بها وزاد التبادل التجارى بينهم وبين جيرانهم .

ولما كان الدين هو ما أسهموا به فى مضمار الحضارة فقد عنى الباحثون بدراسته ودراسة أصوله وتعاليمه . ومما يذكر فى هذا الصدد أن العهد القديم يمكن أن يدرس على أنه مؤلف أدبى فقد ساهم فيه - الى جانب موسى الذى تكلم بلسان يهوه ووضع الشريعة - عدد من المؤرخين والمعلمين ، ومن الممكن مقارنة الشريعة الموسوية بقانون حمورابى فى كثير من المواد الا أن الشريعة الموسوية تمتاز بما فيها من عناصر أخلاقية لم يرد مثلها فيما سبقها من شرائع ، ومن المعلمين من كانوا يتوخون بذور الكهانة وهذه أصبحت تنحصر فى أسرة هارون بصفة وراثية ويتلخص دورهم فى القيام بالطقوس الدينية ويمكن أن نعد الكاهن

فى هذه الحالة بمثابة وسيط بين الانسان وربه ، ومن المعلمين من كانوا يتميزون بالحكمة وهم يخاطبون الأفراد ويحضونهم على اتباع الفضائل التى تهيىء لهم سبل النجاح والفلاح فى دنياهم وآخرتهم ، ومنهم من وصلوا الى مكانة خاصة اذا بلغوا مرحلة مرتفعة من التفكير وقد عرف هؤلاء باسم الأنبياء وقد نادوا بعبادة الاله الواحد وكانوا يهدفون الى رقى الفرد وسلامة المجتمع وربطوا بين الديانة والأخلاق واعتبروا قواعد السلوك كأوامر الهية •

ولابد من الاشارة هنا الى كتاب العبرانيين المقدس « التوراة » مر بمراحل متعددة اذ يبدو أنه بدأ عن طريق الرواية يتناقله الخلف عن السلف ثم تعرض للتنقيح وبعدئذ انتقل الى مرحلة التدوين • والتوراة العبرية المتداولة الآن هى التى جمعت أسفارها من مدونات تاريخية قبل السبى وبعده وقد حذفت منها بعض الأمور التى لم ير أحبارهم أن تكون ضمن هـذه الأسفار كما أن بعض الأسفار ضاعت أثناء الجمع واكتفى بالاشارة اليها أثناء النسخ ، وقد أخذت أقدم الأسفار صورتها الحالية خلال السبى البابلى (الأسفار الخمسة الأولى) بينما ظل تدوين الأسفار الأخرى فى العصور التالية الى العهد السلوقى أى أن العهد القديم لم يكن كاملا فى عهد المسيح ، أمـا التوراة الأصلية فرغم أن موسى سلمها للاويين لحفظها فى تابوت العهد وأمرهم بقراءتها أمام كل الشعب فى مناسبات خاصة الا أنها فقدت ولم يرد لها ذكر بعد ارجاع التـابوت من الفلسطينيين الذين كانوا قد استولوا عليـه حيث لم يكن بالتابوت حينئذ الا لوحى الحجر (الوصايا العشر) وأغلب الظن أن بعض أجزائها بقيت لدى أحد الكهنة وتوارثتها الأجيال الى أن وصلت الى يد أحـدهم بعد العودة من الأسر البابلى وأدخل فيها بعد التعديلات •

والى جانب هذه التوراة وجدت مجموعـة من القواعد والأحكام والوصايا والتعاليم ظلت تنقل مشافهة عن طريق الرواية الى أن اتسـع نطاقها وصارت أضخم من أن تعيها الذاكرة فدونت على أيدى العلماء الدينيين الذين أرادوا بها أن تكون دسـتورا لهم ، وهى بمثابة السنة للتوراة وقد عرفت باسم التلمود ، ومع ذلك فان عددا من اليهود أنكروه ولم يعترفوا بغير التوراة وهؤلاء هم القراءون ومنهم من اعترف بـه •

